عبدالوهاب مطاوع

أرجوك لا تفهمني

دار الشروق

أرجوك لا تفهمني

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الثانية
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

قـل لـى .. من فضـلك !

ـ ما هو أحرج موقف فى حياتك ؟

ـ أجيبك ولا تغضب ؟ ـ نعم .

ـ هو هذا « الموقف » الذى تسألنى فيه هذا السؤال الساذج الذى اسمعه دائمًا من كل من يجرى معى حديثًا صحفيًا لمجلة مدرسية أو جامعية !

ولست أعرف من هو أول من صاغ هذا السؤال البليد . . فأصبح من بعده تقليدا لكنى استقبل كثيرين من طلبة جماعات الصحافة فى المدارس والكليات ولابد أن أسمع هذا السؤال وأفكر فيه فتغيب عن ذاكرتى لحظتها كل ما شهدته فى حياتى من مواقف مثيرة للحرج ـ ولا أجد ما أجيب به سائلى فإذا انصرف عنى . . قفزت إلى خاطرى كل المواقف المحرجة ليس فى حياتى فقط . . بل وفى حياة بعض الشخصيات التاريخية التى قرأت عنها أيضًا !

والحق أنى اعتبر اللحظة التى ينقلب فيها صديقان أو حليفان سابقان كل منهما على الآخر فيتواجهان بالعداوة السافرة والصراع . . من أحرج

المواقف فى حياة البشر . لهذا أقف عند تفاصيل هذه اللحظة الحرجة واستعيدها متفكرا أكثر مما أتوقف أمام شىء آخر واتخيل مثلا حال يوليوس قيصر بطل روما قبل الميلاد وصانع انتصاراتها والذى ما زال شهر يوليو يحمل اسمه حتى الآن ، حين تآمر عليـه أعداؤه واغتالوه فى مجلس الشيوخ سنة ٤٤ قبل الميلاد ولا اتوقف عنـد أسباب المؤامرة ولاوجه الحق فيها بقدر ما أتوقف أمام اللحظة التى انهالت فيها خناجر الأعداء على قيصر العظيم فاكتشف لذهوله أن من بينها خنجر «صديقه» ماركوس بروتس . . ولم توجعه طعنات الأعداء بقدر ما أوجعته طعنة الصديق . . ثم جاء شكسبير بعد عشرات القرون فلخص ذلك فى عبارة وضعها على لسان قيصر فى المسرحية التى تحمل اسمه فترجمت كل مرارة الدنيا تجاه غدر الأصدقاء وأصبحت مثلا بعده هى عبارة : « حتى أنت يا بروتس » !

هذه المواقف الحرجة حقا هى التى تثير التأمل والتفكير . . مواقف اللحظة التى تلتقى فيها عين الغادر بعين المغدور به وعين الجانى بعين الضحية . . أما المواقف الأخرى فتدخل فى باب الطرائف أكثر منها فى أى باب آخر . . ومن بين العديد منها اتذكر كثيرا ذلك الموقف العجيب الذى وجد نفسه فيه أحد علماء الزيولوجيا « علم الحيوان » حين انساق وراء طبيعة بعض المتخصصين فى التحدث عن تخصصاتهم كأنها كهنوت لا يعرف أسراره أحد غيرهم فاندفع ذات مرة فى جلسة بالمجمع اللغوى يتحدث مع العقاد العظيم ويردد من حين إلى آخر هذه العبارة كلما أراد أن يقول شيئًا : عنـدنا فى الزيولوجيـا ! ففوتها العقاد مرة فلما كـررها انفجرت براكين غضبه، وقال له فى ثورة هائلة : عندكم يعنى أيه يا . . هل تريد أن

تقول إننى لا أفهم أحسن منك فى الزيولوجيا ! !

وليس بعيدًا أن يكون العقاد صادقـا فى ذلك . . لكن كان الله فى عون عالم الزيولوجيا الذى لم يقصد إهانة العقاد لكنه وضع نفسه فى هذا الموقف الحرج حين غفل عن مـراعاة حساسية الكـاتب العظيم وفات عليـه أن ما يجوز أمام البسطاء لا يجوز أمام العباقرة من أمثـال العقاد وما أكثر ما أتذكر قصة عـالم الزيـولوجيا هـذا . . وبعضهم يحدثنى بلهجـة المتعالم عـن فرع محدود من فـروع الثقافـة يتصور أنـه كيمياء لا يحيـط بعلمها غيره فـأشفق عليهم فى «سرى» من مصير عـالم الزيولوجيـا إذا صادفوا شخصا انفعـاليًا شديد الاعتزاز بنفسه كالعقـاد . . وأكتم ضيقى بما يقولون وأواصل الصبر والاحتمال .

وأحسـب من المواقـف المحرجـة أيضا مـوقف ذلـك الشخص سليـط اللسان الـذى كان نـائما فى أحد مسـاجد العـراق حين عثر بـه أبو العـلاء المعرى المحـروم من نعمة البصـر فانسـاق وراء شياطيـن الغضب وصاح فيه : مـن هذا الكلب الـذى عثر بـى ؟ . فلم يغضب المعـرى الحكيم ولم يبادلـه سبابًا بسبـاب وأنما أجـابة بهدوء : الكلب مـن لا يعرف للكلـب سبعين إسما !

وكـان المعـرى يعـرف للكلـب سبعين اسما فى العـربيـة . . وشـاتمه جاهل . . فكانت « كبسة » للرجل ولكـل من يتطاول على من هو أكثر منه علمًا وفضلاً .

أما موقف الخليفة المنصور مع أبـى مسلم الخراسانى الذى كان له أكبر الفضل فى قيام الدولة العباسية فليس من قبيل المواقف الحرجة بقدر ما هو

من ألاعيب السياسة وتضارب المصالح وصراعات القوة . . ومع ذلك تبقى اللحظة التى كشف فيها المنصور عن غدره بحليفه نموذجًا للمواقف الحرجة على مر التاريخ فقد استدعاه المنصور بعد أن أخمد له ثورة عبد الله ابن على ثم استشعر أبو مسلم نية الغدر به من المنصور فتوجه بجيشه إلى خراسان حيث لا تطوله يد المنصور لكن أحد عملاء المنصور نجح فى اغرائه بالتوجه إلى عاصمة الخلافة وتصفية ما بينهما . . واستجاب أبو مسلم وتوجه إليه ولقيه المنصور فأحسن استقباله . . وظل يستقبله كل يوم بالحفاوة إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة . . فاستدعاه إلى خيمته وراح يعاتبه بصوت عال ثم صفق بيده فخرج من وراء مجلس أبى مسلم رجال المنصور شاهرين السيوف . وأدرك الخراسانى المصير فنقل عينه بينهم وبين الخليفة ثم قال له : يا أمير المؤمنين استبقنى لعدوك . فأجابه المنصور : وأى عدو أعدى لى منك ! ثم أشار لرجاله فانهالوا عليه بالسيوف ولم تطل لحظة التقاء العيون بين الغادر والمغدور به طويلا !

وعلى حين يبعث هذا الموقف على التأمل الحزين فى تقلبات الأيام يبعث موقف العظيم عمر مع الأعرابى الجلف الذى احتكم إليه على التأمل الباسم والاعجاب المتزايد بالخليفة الذى استن سنة تنحى القاضى إذا استشعر الحرج .

فقد أهداه ذلك الأعرابى رجل « جزور » أى رجل ناقة فتقبلها منه وطعم منها ثم فوجئ به بعدها بأيام يحتكم إليه فى خلاف بينه وبين خصم له ووقف مع خصمة وراح يشرح تفاصيل الخلاف . . ويقطع حديثه بين كل فقرة وأخرى بقوله : إفصل بيننا كما تفصل رجل الجزور ! فعزف عمر

عن القضاء بينهما وقال لعلى بن أبى طالب : ما زال يرددها حتى كدت أقضى له . . فاحكم أنت له يا أبا الحسن . وتنحى له عمر عن القضية بعد أن ألقى على الإنسانية درسًا فى حياد القاضى وبعده عن أى شبهة للحرج ولو كانت رجل جزور !

ولأن عدو الإنسان الأول هو لسانه ان لم يعقله ويتحكم فيه ، فقد كاد الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى «١٨٦٣ ـ ١٩٣٦ » أن يفقد حياته بسبب زلاقه لسانه وإنسياقه وراء فنون البلاغة . فقد كان عضوا فى مجلس «المبعوثان » الذى يضم ممثلى الولايات التركية عن العراق فى أواخر القرن الماضى وفى إحدى جلساته نوقشت ميزانية وزارة الحربية فكان من بين بنودها مبلغ ضخم يخصص لقراءة صحيح البخارى فى سفن الأسطول للتبرك به ! فوقف الزهاوى معترضًا، وقال إنه يفهم أن يكون هذا المبلغ فى ميزانية وزارة الأوقاف أما فى ميزانية الحربية فأمر غير مفهوم . . لأن الأسطول يمشى بالبخار . . لا بالبخارى !

ورغم سلامة رأى الزهاوى إلا أن الجناس بين البخار والبخارى أعطى الانطباع بأنه يستهزئ بصحيح البخارى الذى يروى الحديث الشريف فثار عليه المجلس وشغبت عليه العامة وتعرض بسبب هذا الموقف ومواقف أخرى مشابهة لغضب الرأى العام فى بلاده حتى لزم داره فى بعض الفترات خوفا على حياته من الخطر !

والدرس هو أن كل شىء يمكن أن يقال لكن إذا احسن قائله التعبير عن رأية بغير الاساءة لأحد أو التعريض بالمقدسات أو استثاره مشاعر

الآخرين . إذ لولا انسياقه وراء الجناس بينَ البخار والبخارى لما ثار عليه أعضاء المجلس .

ومن ذلك كثير وكثير فى الحياة اليومية . . ومنـه حكاية الشاعر البائس إمام العبد مع شاعر النيل حافظ إبـراهيم الذى كان يعطف عليه ويواسيه من حين لآخر بماله القليل . . ثم استسلم إمـام العبد لسلاطة لسانه فبلغ حافظا عنـه أنه يقلل من شأنـه كشاعر عظيم ويقول فيما يقـول : أنا الذى خلقت حـافظ إبـراهيم . . ثم لم تمض أيـام حتى جـاء إلى حافـظ وهو فى مجلسه بـالمقهى يطلب منـه مالا فنظر إليـه حافظ بـاسما ثم قال : : أنـا يا مولاى . . كما خلقتنـى ! وضحك الأصـدقاء . . وكسـب حافـظ الجوله ببلاغته وكلمته التى تحمـل الكثير من العتاب واللوم . . والاصرار على أنه لن يدفع له نقودا ! وعلى الجاحد تدور الدوائر !

أما مـوقف معاويـة بن أبى سفيـان مع ذلك السفيـه الذى تراهـن مع صديق لـه على أن يستثير غضبه وهو الداهيـة المعروف بحلمه فانـه يتعدى حدود المواقف المحـرجه إلى حدود سوء الأدب فقد اتجه إلى معـاوية بعد أن انتهى من صلاته بالمسجد ووضع يده على لحمه البدين وسط ذهول الجميع ثم قال لـه بوقاحة : مـرحى يا معاويـة لقد ضاهيت أمـك هنداً فى لحمها وشحمها ! وحبـس الحاضرون أنفاسهـم انتظـارا لما سيفعله به معـاوية . . ففاجأهـم بقوله له بصوت هادئ : رحمها الله رحمة واسعة . . لم تكن كذلك فى أخـريات أيـامها ! ثـم انصرف عنـه فى هدوء «وبـاخ» السفيه وكسـب معاوية بحلمه احترام الحاضرين .

أما حكاية مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد السابق مع كاتب

خطبه فتكادتكون نموذجا للموقف الحرج كما يتصوره الآخرون . . فقد كان فى رحلة إلى الوجه القبلى . . وفى كل مدينة يتوقف ويلقى خطبة يكتبها له شاعر صحفى كان معروفًا بخفة دمه ثم دعى النحاس للغداء مع مرافقيه فى إحدى القرى ولم يكن فى خطته أن يلقى خطابا فيها ثم فوجىء بمضيفيه يطلبون منه أن يؤخر سفره ليلقى خطابًا جديدًا فى الأنصار المتجمعين خارج البيت .وبتلقائية كانت معروفة عن النحاس قال لمن حوله وهم وقوف فى شرفة الفيللا : لا مانع . . قولوا «للحمار» الذى يكتب لنا الخطب أن يكتب خطبة جديدة بسرعة !

ففوجئ بالشاعر الصحفى بين الواقفين حوله . . وقد سمع ما قاله يجيبه بسرعة بديهته : الحمار جاهز . . يا دولة الباشا !

وأغرق الجميع فى الضحك وكان أعلاهم ضحكا النحاس نفسه والشاعر الكاتب . . وانتهى الموقف المحرج بدعابة منه لكاتب خطبه واعتذار له بتقبيل رأسه !

من المواقف المحرجة التى أصبحت مثلا فى كيفية التخلص من الحرج بسرعة البديهة والذكاء حكاية المحامى المصرى الذى دخل إلى قاعة المحكمة فى الثلاثينيات من هذا القرن وراح يترافع وهو غائب الذهن تمامًا لمدة نصف ساعة ضد موكله وليس عنه ووكيله وأهل المتهم يحاولون عبثا أن يلفتوا نظره إلى أنه محامى ابنهم وليس محامى خصمه حتى تنبه وتوقف لحظات والعرق يتجمع فوق جبهته ثم قال بهدوء : هذا كل ما يستطيع زميلى محامى الخصم أن يقوله ضد موكلى . . والآن نبدأ فى تفنيده ! ثم انطلق يفند كل ما قال !

وفى رواية للروائية الفرنسية فرانسواز ساجان ، أرادت سيدة أن تحُرِج زوج صديقتها الذى يغازلها فقالت له عن زوجته : جوستين ظريفة . . فأجابها على الفور جوستين ظريفة وأنت ظريفة وأنا ظريف واعتقد أننا جميعًا قوم فى غاية الظرف ! . . وتخلص الوغد من الحرج بهذه الزلاقة فى اللسان !

أما ذلك المواطن الألمانى الذى كان يجلس فى أحد المطاعم ولفتت نظرة شراهة الفيلسوف الألمانى شوبنهاور فى الطعام فـراح ينظر إليه بدهشة فقد وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه حين تنبه لنظراته شوبنهاور وفاجأه بقوله : أعلم أنك مندهش لأنى آكل ثلاثة أمثال ما تأكل . . لكن لا تنسى أيضا أن لى مخًا يزن ثلاثة أمثال مخك . . ! وكانت « كسفة » علمتنا ألا نتلصص بأنظارنا على الآخرين وألا نطيل النظر لهم وهم فى شئونهم الخاصة وإلا نالنا منهم ما نال هذا المواطن من لسان الفيلسوف الحاد !

كما علمتنا قصة الروائى الفرنسى بلزاك مع معاصره العظيم الكسندر ديماس الأب ألا نحاول التقليل من شأن جهد أى إنسان لكيلا ينالنا منهم ما نال بلزاك من ديماس فقد قال بلزاك له ذات مرة : حين تجف موهبتى سأبدأ فى كتابة المسرحيات ! مستهينا بذلك بالفن المسرحى الذى يكرس له ديماس معظم جهده ، فإذا بالأديب الجامح يجيبه بلا تردد :

ـ إذا فابدأ فى كتابة المسرحيات من الآن .

وكانت واحدة بواحدة . . والبادى أظلم . . والمسامح أكرم ومن سوف يعفينى من مثل هذا السؤال البليد فى حديث صحفى يجريه معى أفضل وأعقل . .

فعسى الله أن يخفف عن كل إنسان حرجه . . ويحقق لكل إنسان أمنيته . . ليعيش الجميع فى سلام وأمان بلا حرج ولا مواقف محرجه ان شاء الله . وإلى أن يتحقق ذلك . . قل لى من فضلك : ما هو أحرج موقف فى حياتك ؟!

أرجـــوك لا تفهمنـــى !

عفوا إن بدا حديثى هذا الأسبوع مضطربا ، فأنا أكتبه وأنا صائم ، لكن لا بأس بمحاولة الكتابة بلا قهوة ولا سجائر فالانسان قادر دائما على التكيف مع الظروف الجديدة ، وبسبب قدرته هذه ومرونته استطاع أن يتغلب على ظروف الطبيعة القاسية وينجو من الانقراض ، فى حين عجز الديناصور عن التكيف مع الطبيعة فانقرض .

ولأنى لست ديناصورا فإنى احاول دائما تطويع نفسى لكل ظروف الحياة وقبولها والتعايش معها .

صحيح أن ذهنى مشتت . . وتركيزى ضعيف ، وإنى أكتب الجملة الواحدة فى عشر دقائق وأنه من المحتمل اذا استمريت فى الكتابة بهذا المعدل أن تفوتنى صلاة العيد قبل أن أنهى هذا المقال . . لكن من قال إن الحياة رحلة خالية من العناء ؟

ليس مهما كم من الوقت سوف يستغرقه هذا المقال . . وإنما المهم هو أن أثبت لنفسى أولا أنى قادر على الكتابة أثناء الصيام . . وأن يصل هذا المقال إلى غايته حتى وان بدا لى أنا شخصيًا غير مفهوم . . وما خاب سعى قارئ لبيب يحاول أن يفهم ما لا أفهمه أنا .

عفوا انتظر لحظة حتى اقسّم صفحات هذا « البلوك نوت » الذى أكتب فيه إلى نصفين بالطول . . تسألنى بالطبع ولماذا بالطول وليس بالعرض وأجيبك بأن السبب هو إن عرض صفحة « البلوك نوت » الطبيعى لا يتناسب مع حالة تشتت الذهن وبلادة العقل التى أعانيها الآن . . وقد لاحظت أنى ما أن أصل إلى نهاية السطر حتى أكون قد نسيت بدايته ، فأتوقف للنظر إلى بداية السطر واسترجاعه ، أما فى نصف الصفحة الطولية فإن النهاية لا تبتعد كثيرا عن البداية فلا تغيب عن ذهنى ومع ذلك فلا بأس من قسمة النصف إلى ربعين بالطول إذا لاحظت على نفسى أن حالة النسيان قد استمرت معى بعد التقسيم . . بل وماذا يمنع إذا اقتضت الضرورة من قسمة الربع إلى ثمنين حتى ولو تحول البلوك نوت إلى شرائط طولية لا يتسع كل شريط منها إلا لكلمة واحدة؟ . . أليس للإنسان عقل يتصرف به فى مواجهة كل ما يعترضه من مشكلات ؟ وأليست هذه المرونة فى التفكير بالذات هى التى حمته من الانقراض عبر ملايين السنين .

ان الكلمة المكتوبة مسئولية خطيرة ولابد من توفير كل الوسائل الممكنة للاحتشاد الذهنى لها حتى لا تطيش كلمة عن مكانها فتغير المعنى أو تحقق أثرا خاطئًا . فلقد تسببت عبارة طائشة أضافها عبد الله بن المقفع إلى عهد الأمان الذى كُلِّف بكتابته بين الخليفة المنصور العباسى وعمه عبد الله بن على فى قتل ابن المقفع شر قتله . . لقد كان عبد الله بن على عم المنصور واليه على الشام وخرج عليه فسير إليه المنصور الجيوش وهزمه وهـرب عـبد الله إلى أخويه فرفضا تسليمه إلى المنصور إلا إذا كتب له بالأمان

فوافق المنصور وترك لهما كتابة ما يريدان وكان ابن المقفع كاتب احدهما فكلفه بكتابة عهد الأمان فكتبه على خير ما يرام لكنه أضاف فى نهايته عبارة يقول فيها أن الخليفة إذا نقض عهده وأخلف وعده فإن نساءه وجواريه يصبحن محرمات عليه وغلمانه وعبيده يصبحون أحرارا ويصبح هو خارجا على الإسلام وتستباح أمواله وتسقط بيعته ويحق قتله !

وقرأ المنصور هذا الكلام واستشاط غضبا ورآه خروجا عن آداب مخاطبة الملوك فسأل عن كاتبه وعرفه وأمر واليه على البصرة أن يؤدبه ، لكن الوالى كان يكره ابن المقفع أكثر فطلبه وأمر باشعال نار حامية وراح أعوانه يقطعون من جسمه جزءا جزءا ويلقونه فى النار حتى مات وانتهى هذه النهاية الأليمة المحزنة . .

فترى كم كان «عرض » الصفحة التى كتب فيها ابن المقفع هذا العهد حتى نسى «بدايتها » التى يتحدث فيها عن خليفة ينبغى ألا يخاطبه بمثل هذه الكلمات الجارحة ؟

لقد كان ابن المقفع حكيما أديبا جم الأدب وشهد له بذلك معاصروه حتى لقد سئل مرة : من أدبك ؟ فقال : نفسى . . كنت إذا رأيت من غيرى حسنا أتيته . . وإن رأيت قبيحا أبيته ! ومع ذلك لم يغنه الحذر عن القدر واستجاب ذات مرة لشطحات قلمه فراح ضحية لها .

والفيلسوف العربى ابن رشد ألم تساهم كلمة واحدة بل حرفان فقط من كلمة واحدة فى محنته ؟

لقد كان الفقهاء ينقمون عليه آراءه ودراساته الفلسفية وينقمون عليه أكثر منزلته لدى ملك المغرب والأندلس فى القرن السادس الهجرى

أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور ، ويرمونه بالخروج على أحكام الإسلام الصحيحة، ورغم عطف الخليفة عليه لم ير بدا فى النهاية من الاستجابة للفقهاء مع كثرة تأويل آراء ابن رشد ، فدعاه الخليفة إلى ما يشبه المحاكمة ووجه له الفقهاء الاتهام ودافع ابن رشد عن نفسه ، وانتهى الأمر بإدانه الفيلسوف وقضى الخليفة بمعاقبته بالنفى من قرطبة واعتقاله فى بلدة قريبة منها وراعى فى ذلك سنه وصحته وسابق مودته عنده وحرقت كتب الفيلسوف فيمن حرقت كتبهم ممن حوكموا معه فى هذه الحملة . . ومع ذلك فلقد أكد المؤرخون أنه كان لغضب المنصور أسباب أخرى إلى جانب ضغط الفقهاء . . ينتمى بعضها إلى هفوات اللسان . . والقلم ، منها إنه كان يخاطب المنصور دائما بقوله «تسمع يا أخى » فكان المنصور يضيق بجرأته فى مخاطبته اعتمادا على سابق منزلته عند أبيه ثم عنده ، ومنها وهى الأهم عبارة وردت فى كتابه عن الحيوان اعتبرت عيبا فى الذات الملكية حين كتب ابن رشد مشيرا إلى المنصور فى باب الزرافة : ورأيت الزرافة عند ملك البربر !

ثم دافع ابن رشد عن نفسه فيما بعد بأن العبارة الصحيحة هى : عند ملك البرين وليس البربر وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ على غرار الأخطاء المطبعية التى تقلب المعانى الآن فى الصحف والمجلات . . وشفع له آخرون فعفا عنه بعد عامين تقريبا فى النفى واسترد حظوته لدى المنصور لكن العمر لم يمهله طويلا فمات بعدها بحوالى سنة .

فهل رأيت ما قد تفعله أحيانا «الكلمة » المحرفة . . أو اعتياد اللسان على عبارة معينة . . فى مصائر بعض البشر ؟

بل ألا ترى احيانًا كيف تجمع كلمة عابرة أو طائشة بين مصير اثنين من البشر أو تفرق بينهما ؟

إن فى مذكرات شارلى شابلن قصة غريبة عن زواجه الأول . . تروى انه تعرف فى «شاليه » أحد أصدقائه الصيفى على ممثلة مبتدئة جميلة اسمها ميلوريد هاريس جاءت بصحبة صديق ثم اختلفت معه فطلبت من شابلن ان يوصلها بسيارته للمدينة وأوصلها وعاد إلى بيته فإذا بجرس التليفون يدق وصوتها يسأل بسذاجة : فقط أردت أن أعرف ماذا تفعل؟

وانتهى الحديث بدعوته لها على العشاء فى المدينة . . وانتهى الأمر عند هذا الحد وكان الانطباع الذى تركته فى نفسه هو إنها فتاة صغيرة نزقة وبعد عدة أيام لم تخطر خلالها فى باله قال له سكرتيره إنها طلبته فى التليفون ثم كتب شابلن بعد ذلك بأكثر من ٢٥ سنة فى مذكراته هذه الكلمات : ولولا أنه عندئذ أدلى لى بملاحظة معينة لكان الاحتمال الأكبر هو ألا أهتم برؤيتها مرة أخرى ، لكن ما حدث هو أنه ذكر لى أن سائق سيارتى أخبره أننى حين غادرت الشاليه الصيفى لصديقى منذ أيام كانت معى «أجمل فتاة شاهدها فى حياته » فاستثارت هذه الملاحظة غرورى وكانت البداية !

وكانت البداية فعلا لقصة زواج فاشلة كان الزواج فيها بالنسبة لزوجته مغامرة مثيرة كالفوز فى مسابقة الجمال ولم يستطع شابلن أبدا أن ينفذ إلى عقلها الموشّى على حد تعبيره الجميل بشرائط ملونة من الحمق ، وترددت الشائعات حولها ونقل له صديقه دوجلاس فيربانكس ما يتردد عنها قائلا : اعتقد أنك يجب أن تعرف ! فكانت النهاية لزواج لم يكن مقدرا له أن يقع من البداية لو لم ينسحب سكرتير شابلن من لسانه وينقل له عبارة سائق

سيارته الطائشة وهو يبلغه بأن تلك الفتاة النزقة قد طلبته فى التليفون .

وما أعجب الإنسان الذى قد يقتنع احيانا بما لم يقتنع به من قبل لمجرد أن الآخرين قد أبدوا اعجابهم به !

هذا مثال للعبارة التى قد تتسبب أحيانا فى الجمع بين شخصين لم يكن مقدرا لهما أن يجتمعا . . والإنسان قد يتوقف أحيانا عند كلمة أو عبارة تأتى عرضا على لسان إنسان آخر يلتقى به لأول مرة فتكون سببا فى أن يقترب منه أو يبتعد عنه . . والعبارة الواحدة قد تصاغ بطريقة معينة فتقرب بين النفوس والقلوب وقد تصاغ بطريقة أخرى فتشعل نارا حامية بينها ، وفى مذكرات الدكتور سيد أبو النجا «ذكريات عارية » مثال طريف على ذلك ، فلقد كان يعمل مدرسا بكلية التجارة بجامعة الأسكندرية حين كان اسمها جامعة فاروق فى الأربعينيات وكان رئيسها هو طه حسين وكان يعمل معه أستاذ مساعد فكتب طلبا إلى رئيس الجامعة الدكتور طه حسين ووقعه بعبارة «أستاذ القسم » اعتمادا على أن القسم كان بلا أستاذ فى ذلك الوقت لكن طه حسين لم يرض على انتحاله هذا اللقب الجامعى فرد عليه بخطاب يقول له فيه : « هذا احتيال لا يليق بالعلماء ! » .

فغضب الأستاذ المساعد وكتب خطابا إلى طه حسين يقول له فيه : إن هذا القول جاف أرفضه وأحتج عليه وهمَّ بارساله له فقال له سيد أبو النجا لو كتبت ذلك لطه حسين سيكون له معك شأن ، والأفضل أن تكتب له : إن هذا القول ماس ولا أستطيع قبوله . فسأله وما الفرق ؟ قال له : الفرق كبير فكلمة جاف تنصرف إلى طه حسين وكلمة جارحة تنصرف إليك والرفض فعل إيجابى أما عدم القبول فهو سلبى ! واستجاب الأستاذ

المساعد لرأى سيد أبو النجا وأعاد صياغة رسالته لطه حسين فاستدعاه وطيب خاطره وطلب منه التقيد بلقبه العلمى !

أما الأمثلة على العبارات أو الكلمات القليلة الحروف التى قد تفرق بين حبيبين أو زوجين أو صديقين أو شقيقين أو زميلين فلا أول لها ولا آخر ! ذلك أنه من غرائب النفس البشرية أن استرضاءها واكتساب حبها وثقتها قد يستغرق شهورا وسنوات طويلة ، أما تنفيرها أو استثاره كراهيتها وعداوتها فقد لا يتطلب أحيانًا أكثر من عبارة واحدة تكتبها أو تنطق بها فى لحظة فيكون لها اسوأ الأثر وإلا فتأمل حروف عبارات «أنت طالق » . . أو «لو كنت رجلا طلقنى !» أو « لا أريد أن أراك أو أسمع صوتك بعد الآن» أو « من فضلك لا تتصل بى مرة أخرى » أو « اخرج بره يا كلب !» أو «أنت لست رجلا » . . أو «وأنت لست امرأة !» أو «أنت نذل» و«أنت جبان» . . الخ . . لتعرف ماذا يمكن أن تصنع الكلمة من خراب ودمار للنفس وللعلاقات احيانا ولتعذرنى بعد ذلك إذا كنت ما زلت أواصل «التشطير » وتقسيم الصفحات طوليا حتى لا أنسى «المبتدأ » وأنا أكتب «الخبر» بفضل الصيام ولتتجاوز أيضا عن أى شىء لم تفهمه فى هذا المقال وتعفينى من سؤالى عنه إذ لن أستطيع أن أفسره لك لسببين أولا : لأن فاقد الشىء لا يعطيه . . وثانيًا : لأن رمضان كريم !

فعلتــــها !

فى اللغة الإنجليزية تعبير شائع ترجمته الحرفية : لقد فعلتها !

وهو تعبير يستخدمه الإنسان حين يحقق هدفا صعبا أو يعمل عملا كان يبدو له شبه مستحيل قبل الاقدام عليه ، لكنه بارادته وإصراره استطاع أن ينجزه فانبهر هو نفسه بما حقق وقال طروبا فخورا : لقد فعلتها !

ولو راجعت حياتك فقد تجد بين مواقفها ما يستحق أن تردد معه هذه العبارة . . ، وسوف تجد بالتأكيد من الأهداف التى تستحق أن تسعى وراءها بكل الاصرار لتتوقف بعدها راضيا عن نفسك وترددها الكثير . أما أنا فلو راجعت حياتى لما وجدت اختبارًا تذكرت فيه هذه العبارة أكثر من تلك التجربة التى وضعت نفسى أمامها فى سن الشباب . فلقد قررت أن أشترى سيارة من المانيا وأصطحبها معى لمصر . وكانت الخطة التى وضعتها لتحقيق الهدف « محكمة » للغاية ! . .

فلقد رتبت أن أسافر مع صديق لى يعرف الألمانية إلى ميونيخ ثم اشترى بمساعدته سيارة مناسبة وأقودها على الطريق الدولى « الأتوبان » من ألمانيا إلى النمسا ثم إيطاليا وأتوجه بها إلى ميناء جنوا الإيطالى لأركب معها الباخرة

المصرية « سوريا » إلى الاسكندرية . واتخذت لتنفيذ خطتى كل الاستعدادات اللازمة ، فاستخرجت تأشيرات الدخول إلى الدول الثلاث وحجزت تذكرة السفر بالطائرة . . وتذكرة العودة بالباخرة وبوليصة شحن السيارة ، واستخرجت رخصة قيادة دولية من نادى السيارات بالقاهرة ودبرت ثمن السيارة وتكاليف الاقامة ، ثم سافرت مع صديقى وزوجته على الطائرة الألمانية ، وأمضيت معهما عدة أيام فى فندق جميل صغير استبشرت باسم الشارع الذى يقع فيه وهو شارع جوته لأنى من عشاق هذا الشاعر والأديب الألمانى العبقرى مؤلف آلام فيرتر وفاوست وغيرهما . وانتهت مهمة صديقى وزوجته فى ميونيخ واستعدا للسفر إلى سويسرا وتذكر المهمة التى رجوته فيها قبل السفر ولم أشر إليها أى اشارة بعد وصولنا فاصطحبنى إلى محل لبيع السيارات المستعملة . . واشترى بلا أى تدخل من جانبى السيارة التى رآها مناسبة ودعانى لتوقيع عقد الشراء وسلمنى العقد ومفاتيح السيارة . . وتذكرت أنا فى هذه اللحظة فقط شيئا «ثانويا» فاتنى الاستعداد جيدا له . . فلقد أعددت كل الترتيبات لكن لم أسأل نفسى قط هل استطيع قيادة السيارة فى هذه الرحلة الطويلة التى تزيد عن ألفى كليو متر أم لا ؟ وهل سبقت لى قيادة أى سيارة فى أوروبا . . أو على الطرق الدولية السريعة وأنا الذى لم يكد يتعلم قيادة السيارات إلا قبل شهور أم لا ؟ وهل لى أى خبرة سابقة بهذا الطريق أم لا ؟ سألت نفسى هذه الأسئلة ووجدتنى أجيب عليها بطريقة ابطال المسلسلات الدينية حين يقول أحدهم : لا . . ورب الكعبة ما علمت شيئا من ذلك ؟

ما علمت شيئا ؟ إذن فكيف سأقوم بهذه الرحلة الطويلة ؟ إن هناك

خيطا رفيعا بين الشجاعة . . والخوف إذا استجمعت ارادتك وعبرته دارت عجلتك على الطريق ولم تتوقف إلا عند هدفها . . ويبدو أنى قد فعلت شيئا من ذلك واستجمعت ارادتى ـ وطلبت من صاحب محل السيارات خريطة للطريق ورجوته أن يحدد لى عليها أقصر طريق إلى جنوا فحدده لى بالقلم وشجعنى بكلمات مشفقة وهو يؤكد لى سهولة الطريق ما عدا مسافة قصيرة منه ستحتاج منى إلى بعض الحذر . وفعلت كما يفعل المصارعون قبل النزال حين يلجأون إلى الشحن الانفعالى الذاتى لاستنفار القوة . . وركبت السيارة مع صديقى للفندق ووضعت حقيبتى بها واستدعى لى الصديق سيارة أجره لتسير أمامى وترشدنى إلى «الأتوبان »الدولى ، وودعته وشكرته وقدت السيارة وراء التاكسى فى حذر ، ومضت نصف ساعة قبل أن أصل للطريق الدولى السريع وأشار لى السائق فانحرفت إليه ببطء فوجدت نفسى فجأة فى أتون التجربة بلا أى استعداد ، ووجدت الطريق واسعا يتسع لـ ٦ سيارات فى الاتجاه الواحد ، والسيارات تمرق من يمينى ومن يسارى ويلفحنى أزيز هوائها وهى تعبرنى . . فأحسست بيدى ترتجف على عجلة قيادة السيارة وبقدمى تنتفض فوق بدال البنزين وخيِّل إلى أنى أسمع دقات قلبى فى أذنى كقرع الطبول . وبدأت فرقة كاملة من فرق الإنشاد الدينى تردد فى داخلى أدعيتها وتراتيلها . . ، وأصبح هدف حياتى فى هذه اللحظة هو كيف اتفادى السيارات المارقة وانحرف ببطء وحذر إلى جهة اليمين لأستقر فى خانة النقل البطىء وبجهد جهيد استطعت الوصول لليمين .

وهدأت السرعة واستقريت على سرعة ٥٠ كيلو مترا فى الساعة

وواصلت السير نصف ساعة . . فبدأت أنفاسى تهدأ وارتجافى يتوقف . . ثم لاحظت بدهشة أنى بدأت اكتسب الثقة فى نفسى وأزيد من سرعتى تدريجيا . . فقدت السيارة ـ يا للجسارة ـ على سرعة ٦٠ كيلو مترا وقدرت أنى بهذا المعدل لن يمضى سوى ثلاثة أيام وأصل إلى جنوا ! ثم استكثرت فيما يبدو أن امضى ٣ أيام فوق الطريق فزدت السرعة ياللجنون ـ إلى ٧٠ كيلو مترا وبعد أقل من ساعة أخرى كنت قد فقدت إتزانى . . واخترقت «حاجز الصوت» بسرعة ٨٠ كيلو مترا ! وبدأت إتجه لليسار وسط السيارات المسرعة . . وأزيد السرعة حتى وجدتنى بعد ساعتين أسير بمعدل ١٢٠ كيلو مترا واتساءل مبهورا حين تمرق بجوارى السيارات بأى معدل يسير هؤلاء المغاوير ؟!

واسترخت اعصابى تماما وبدأت أرقب الخريطة واتبع علامات الطريق إلى المدن المحددة لى على خط السير لأتأكد من أنى فى الاتجاه الصحيح ، واكتشفت أن الأمر أيسر كثيرا مما توقعت ومما خشيت . ووجدت الوقت طويلا فشغلت نفسى بالمشاهدة واجترار الذكريات وتذكر أحبائى وأصدقائى . . وفاجأتنى خلال نوبة التذكر ذكرى عجيبة ضحكت لها من جديد . . وتوجست منها ! فلقد تذكرت صديقى تعيس الحظ دائما الذى علمنى قيادة السيارات ، وكان من هواة السيارات المتهالكة القديمة التى لا يستطيع أحد قيادتها غيره . وفى بعض الفترات كان يملك سيارة كل ما فيها تالف وغير صالح للاستخدام حتى الفرامل وكان من غرائبها أن بها خللا فى عجلة القيادة يمنعها من الاتجاه لليسار فإذا أراد الاتجاه يسارا دار بها دوره كاملة من اليمين ، ثم شاء له سوء حظه فى الستينيات أن يسير

بسيارته وهى بلا فرامل تقريبًا فى شارع رمسيس فقادها ببطء شديد خوفا من الاصطدام بالسيارات، فإذا بضابط مرور يركب الموتوسيكل يجرى صائحا فى قادة السيارات : اجروا بسرعة .. اجروا موكب الرئيس عبد الناصر فى الطريق ! ولم يسمعه صديقى لانشغاله التام بترويض سيارته وضاق به ضابط المرور واقترب منه وصاح فيه بعنف ! اجر .. إجر.. موكب الرئيس خلفك ، وذعر صديقى وارتج عليه الأمر ونسى تماما حكاية الفرامل وداس على بدال البنزين بكل قوته ! وانتهى الأمر طبعا بحادث تصادم فظيع عند إشارة المرور بميدان رمسيس واصطدم بصف السيارات الذى ينتظر الاشارة وكاد يفقد حياته .

ضحكت للذكرى وخفت منها وافقت من ذكرياتى فوجدتنى أمام بوابة الحدود النمساوية وواصلت الرحلة مستعينا بالخريطة إلى أن وجدت الطريق يضيق ويرتفع تدريجيا فقللت من سرعتى وان كانت السيارات الأخرى لم تفعل مثلى .. وواصلت السير فإذا بالطريق يزداد ضيقا وإرتفاعا.. وسرعتى تواصل الانخفاض إلى أن اكتشفت فجأة أنى قد أصبحت دون أن أدرى فوق قمة جبل شاهق الارتفاع ويناطح السحاب.. وعلى طريق ضيق لا يتسع إلا لسيارتين من الاتجاهين ووجدت الطريق يتلوى فوق الجبل كالثعبان فلا ترى السيارات القادمة من الاتجاه الآخر إلا وهى فى مواجهتك مباشرة وزاغت منى نظره عفوا إلى الهوة السحيقة إلى يمينى فتجمد الدم فى عروقى وتشنجت يداى على عجلة القيادة وأدركت أن هذه هى المسافة « القصيرة » التى نبهنى لها صاحب محل السيارات وطالت هذه المسافة القصيرة إلى ساعتين طويلتين كليل

المعذبين ثم أخيرا بدأ الطريق يهبط تدريجيا . . ويتسع شيئا فشيئا إلى أن انتهى الجبل عدت للطريق العادى فكان أول ما فعلته هو أن توقفت على يمينه وغادرت السيارة لألتقط أنفاسى قليلا ثم نظرت خلفى لأرقب الجبل الذى عبرته فتذكرت ما رواه الأديب العظيم توفيق الحكيم فى كتابه الرائع «يوميات نائب فى الأرياف » حين انتقل إلى احدى القرى للتحقيق فى جريمة قتل وهو وكيل للنيابة خلال الليل . فعجزت السيارة عن مواصلة السير فى الدروب الضيقة ونزل الجميع وركبوا الحمير إلى القرية المقصودة ، وأمضى الليل كله فى التحقيق ثم انصرف عائدا فى الصباح فركب الجمع الحمير إلى موقع السيارة . . وفى إحدى مراحل الطريق فوجئ توفيق الحكيم بالخفير يسحب الحمار الذى يركبه وكيل النائب العام ليعبر به وهو يمتطيه الترعة فوق جذع نخلة يمتد فوقها ويستخدم ككوبرى . . وبهت الحكيم للمحاولة ونهره صائحا : أنت مجنون يا خفير هل تريدنى أن أعبر فوق الحمار هذه النخلة واسقط فى الترعة ! وذهل حين أجابه الخفير ببساطة : سبق لجنابك أن عبرت بالحمار فوق هذه النخلة نفسها أثناء الليل!

وأظن أن هذا كان أيضا نفس احساسى بعد أن عبرت هذا الطريق الجبلى المخيف فى إحدى سلاسل جبال الألب ولا تتسع المساحة لأروى لك باقى تفاصيل هذه الرحلة المثيرة وكيف انتهت بوصولى إلى جنوا بعد يوم وليلة على الطريق ، ثم اقامتى ٤ أيام فى هذه المدينة الإيطالية الجميلة وعودتى « المظفرة » إلى الاسكندرية مصطحبا السيارة التى لا أعرف حتى الآن كيف استطعت قيادتها واحضارها .

لكنى أقول لك فقط أنك لو أعطيتنى الآن وبعد أكثر من عشرين سنة أموال قارون ونوط الشجاعة من الدرجة الأولى وطلبت منى أن أكرر نفس التجربة وأعبر نفس الطريق الجبلى لما أجبتك إلا بما أجاب به توفيق الحكيم الخفير فى روايته !

ولا عجـب فى ذلك حتـى ولـو كان فـارق الخبرة بأوروبـا وطـرقها بـل وبقيـادة السيارات أيضـا قد أصبح الآن لصالحى وذلكـا الآن فارق القدرة والاقدام . . وربما الاصرار أيضا وهو الأهم لم يعد الآن فى صالحى : . . وهذه هى سنة الحياة وأذكر بهذه المناسبة أن صديقا لى أصبح الآن من أصحاب الملايين فى أوروبا قد روى لى كيف هاجر من مصر وليس معه سوى ١٠ دولارات وحقيبة أقراص بالعجوه وقاسى الأهوال سنوات طويلة إلى أن وضع أقدامه على أول الطريق ، فسألته لو كنت الآن فى نفس الظروف التى دفعتك للسفر فى سن الشباب هل كنت تستطيع أن تبدأ نفس الرحلة وتكرر نفس القصة فأجابنى بلا تردد : لا ولو كانت أموال الدنيا تنتظرنى فلست الآن نفس الشاب الذى كان وما عدت استطيع تحمل ما كان يتحمله !

ولا عجب مرة أخرى فى ذلك فالشباب « يقدر » لكنه تنقصه المعرفة أو الخبرة التى تستثمر قدرته والكهول «يعرفون » لكنهم لا يقدرون وفى هذا قال الشاعر :

أواه لـو «عـــرف» الشبـــــاب
وآه لـو « قـــدِر » المشـــــيب !

ومع كل ذلك فما زلت اؤمن بأن التحدى يستنفر دائما الارادة وأن

بداخل كـل إنسان قدرات على الاحتمال لا يعرف هـو نفسه كنهها . . ولا يقدرها حق قدرها . . ولن يتعـرف عليها وعلى حقيقتها إلا بالتجربة وعند التحدى . كما أنى ممن يؤمنون بما يقوله عالم النفس الأمريكى وليم جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) من أن مجرد احتمال النجـاح يسبـغ على الكفاح نبـلا خاصا ويجعلـه جديرا بأن نبذل كل مـا نملك من جهد وطاقـة فيه . فقط أضيف إلى ذلك أن الـوسائل قد تختلف من مـرحلة إلى مرحلة مـن مراحل العمر . . والأهداف أيضا قد تختلف لكن المؤكـد هو أنك أنت وأنا وغيرنا بداخلنـا قدرات يستنفـرها التحـدى . . ويشحذ فينـا الارادة الكامنـة فى الأعماق ويخرجها من مخابئها .

«فافعلها » أنت أيضا يا صديقى وأقدم على ما قد تستهوله وتتصور نفسك أعجز من أن تحققه . . واستعن بارادتك وكفاحك النبيل على نيل ما تستحقه من الحياة . فقط لا تنس شيئا هاما هو ألا تجر بلا فرامل كما فعل صديقى إياه . . واستكمل دائما أدواتك بالمعرفة الجيدة والاستعداد الصحيح والخريطة الدقيقة ثم ابدأ رحلتك على بركة الله إلى أهدافك فى الحياة !

أنت « حكاية كبيرة » !

كنت مسافرا إلى الخرطوم على الطائرة السودانية منذ حوالى عشر سنوات، فأضئ الضوء الأحمر ، وربطنا الأحزمة وتحركت الطائرة ببطء إلى ممر الاقلاع ثم توقفت وارتفع أزيز محركاتها تمهيدا لاندفاعها السريع الذى يحقق لها عملية الارتفاع والطيران . . وحبست أنفاسى «كالعادة » إنتظارا لهذه اللحظة الحاسمة التى ينخلع فيها قلبى مع اللحظة التى تفارق فيها عجلات الطائرة الأرض . والتى لم استطع رغم اعتيادى السفر أن اتخلص من رهبتها أبدا واستعين عليها دائما بالتمتمة ببعض آيات القرآن الكريم واحبها إلىَّ فى هذه اللحظة الآية الكريمة التى تقول « فالله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين » من سورة يوسف ، وآية الكرسى التى أعيد ترديد آخرها «ولا يؤوده حفظهما وهوا لعلى العظيم » عدة مرات وغيرهما ، وكنت فى تلك اللحظة أتمتم بها أقرأ حين فوجئت بصوت الطيار يتحدث إلى الركاب على غير العادة ويبدأ حديثه بالآية الكريمة : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » من سورة الزخرف ، فتوقفت عن تمتمتى مذهولا وتعجبت من نفسى كيف لم تخطر بذهنى هذه الآية الكريمة من قبل فى مثل هذه المناسبة على كثرة ما سافرت ؟! . . بل وكيف لم أتوقف خلال سفرى مرة

لأتامل هذه الحقيقة وهى : أن الله ـ جل شأنه ـ قد سخر لنا «هذا » . .
وما كنا له «مقرنين » أى مطيقين وقادرين على ضبطه والتحكم فيه
واستغرقت فى تأملاتى . . وهدأت نفسى وأصبحت هذه الآية الكريمة
منذ ذلك اليوم من «مختاراتى » المفضلة عند اقلاع الطائرة أو ركوب السيارة
أو الابحار فى سفينة ، وستكون كذلك بكل تأكيد إذا أتيح لى ذات يوم أن
اركب صاروخا أو محطة فضاء إلى القمر . .

وتفكرت طوال الرحلة فى معناها . . وتساءلت . . وبأى شيء سخر
لنا الله « هذا » وماذا كانت الوسيلة ؟ واجبت نفسى بأنها عقل الإنسان
الذى وهبه الله له . . وارادته التى اشعل جذوتها فى روحه . وازداد اقتناعى
بما اؤمن به دائما . من أن الإنسان هو أرقى الكائنات الحية وأكرمها على
ربه ، وخليفته فى أرضه الذى سخر له كل ما فيها وما فى السماوات أيضا .
وينبغى أن يكون دائما كريما عند نفسه وعند الآخرين . فأنت مهما كان
شأنك تستحق كل الاحترام . لمجرد أنك إنسان ولأنك إنسان بنفخة من
روح الله فيك . ألم يقل الله لملائكته حين أراد خلق آدم عليه السلام « فإذا
سويته ونفخت فيه من روحى فقَعوا له ساجدين » ؟ إنك من سلالة هذا
الجد العظيم الذى سجدت له الملائكة . . واستخلفه ربه ونفخ فيه من
روحه جذوة مقدسة لا تنطفئ إلا عند الرحيل ، بل ووهبه أيضا مواهب
وقدرات وطاقات عقلية ونفسية مالو عرف كيف يستخدمها أفضل
استخدام لحقق لنفسه ما أراد . . ولأضاف إلى الحياة كل يوم جديدا . .
ولجعل من كوكب الأرض . . «فتنة للأنظار » على حد تعبير الكاتب
الروسى انطون تشيكوف ، فالإنسان يستطيع ـ حقا ـ أن يفعل الكثير إذا لم

يستسلم للاحساس بالعجز وتفاهة الشأن . وابسط ما يستطيعه إذا خلت يداه من أية موهبة أو امكانيات ، هو أن يكون « إنسانًا » كما أراد الله له أن يكون فيتعامل مع الحياة والآخرين بشرف ، ويؤدى عمله بأمانة ، ويلتزم بالفضائل وينشر الخير حوله ولو بالكلمة الطيبة . ويعادى الشر . . والقبح وينشر الحق والجمال . . وأى انجاز أعظم من « تجميل » الحياة بوجود الخيِّرين فيها . . ؟ ومن تذكير الآخرين بتصرفاتك الأمينة إن الإنسان الشريف لا يكون تافها أبدا مهما كانت ضآلة شأنه ! لقد كان أحد الفلاسفة يقول كن «كاملا » فى عالم فاسد . . تكتمل الحياة من حولنا بالتدريج وتتجه ببطء نحو مثلها الأعلى ، وأنت تستطيع بلا شك أن تدفعها فى هذا الاتجاه بمجرد أن تكون « إنسان » لا يسلم قياده لغرائزه وشهواته وأنانيته ونوازع الشر واغراءاته .

أما إذا أردت أن تضيف المزيد إلى الحياة . . فلا حد ولا نهاية لما يستطيع عقل الإنسان وارادته أن يفعلا !

لقد قال الكاتب الأمريكى اميرسون : إنه ليس هناك عظماء وأشخاص عاديون . . وإنما هناك أشخاص يلهبون الجذوة المقدسة التى نفخها الله فى أرواحهم . . فترتفع بهم إلى ما يريدون وآخرون يتركونها تذوى وتذبل ويستسلمون لفشل الروح . . والعجز . . والكسل

ويقولون دائما : وماذا نستطيع أن نفعل وحدنا ولسنا سوى أفراد عاديين؟! .

والعقلاء لا يطالبوننا بالمستحيل الذى لا تسمح به قدراتنا ، وإنما يطالبوننا فقط بألا نبادر بالاقرار بعجزنا عما نريد قبل أن نحاول بكل جدية

واخلاص وصلابة أن نحققه ، فإذا عجزنا عنه بعد ذلك فقد نلنا شرف المحاولة . . ورضينا عن أننا لم نقصر فى حق أنفسنا ولا فى حق الحياة ، وكسبنا خلال محاولاتنا المضنية دروسا أضافت لخبرتنا الجديد والثمين .

فأخطر ما يشل روح الإنسان وارادته . . هو الاقرار بالعجز قبل بدء المسيرة . . ولو أقرَّ به كثيرون قبل البداية لما أصبحوا عظماء ، ولما حفروا أسماءهم فى سجل التاريخ ولما أضافوا ما أضافوه إلى الحياة .

لقد عاد طفل صغير فى السادسة من عمره إلى أمه ذات يوم يحمل خطابا من المدرسة تنصح فيه الأم بإبقائه فى البيت بلا تعليم لغبائه ! وقرأت الأم المثقلة بالأبناء وأعباء الأسرة الرسالة فلم تبك ولم تنتحب . . وإنما هزت رأسها وقالت باصرار : إبنى ليس غبيا . . بل هم الأغبياء . . وسوف أعلمه بنفسى فى البيت . . وعلمته بالفعل وبصبر واصرار . فأهدت للبشرية «توماس اديسون » بكل ما أضافه للحياة من مخترعات سهلتها على البشر وزادت من استمتاعهم بها . ترى إذن ماذا كان يمكن أن تكون عليه الحياة الآن لو استسلمت هذه الأم البسيطة أمام مشكلة ابنها وأقرت بعجزها عن مساعدته ؟!

بل ماذا كان يمكن أن تكون عليه الحياة الآن . . لو استسلمت مدام كورى لعجزها وقلة حيلتها بعد وفاة زوجها وقالت لنفسها ما أنا إلا أرملة كسيرة الجناح . سأعجز عن أن أتم ما بدأه زوجى . . ولم تواصل عملها ولم نعرف الراديوم وما ترتب عليه فيما بعد من انجازات علمية وطبية عديدة؟

لقد كان نابليون بونابرت يقول ساخرا من حجج المتقاعسين : ما هى «الظروف » هذه التى يمكن أن تعترض طريق إنسان له ارادة ؟ . . اننى أنا

الذى أصنع « الظروف » التى تمهد لما أريد . . وليست الظروف هى التى تصنعنى . .

وبهذه الارادة الحديدية أصبح سيد أوروبا كلها فى بعض الأوقات .

وليس كل إنسان مطالبا بأن يصبح سيد قارته . . لكنه مطالب ـ فقط ـ بأن يكون كالشاعر الألمانى «جوتة » حين وصف نفسه قائلا : أنا كنجوم السماء لا تمضى فى عجلة لكنها تسير سيردا دءوبا لا يعرف السكون! . . وهذا فعلا ما ينبغى لكل إنسان يرفض أن يكون عبئا على الحياة حتى اللحظة الأخيرة . فالسكون هو الموت والعجز والفشل . . والحركة ولو كانت بطيئة هى الحياة والسعى الدءوب الدائم إلى سعادة الإنسان وخير البشر.

لقد ظل الرسام الفرنسى العظيم « رينوار » يرسم حتى عجز فى شيخوخته عن الامساك بالفرشاة فكان يثبتها فى معصم يده بشريط لاصق ويواصل الرسم بلا هوادة ، وهو يشكر ربه لأنه لم يفقد بصره كما حدث لصديقه الرسام المبدع أيضاً « ديجا »

وأصيب الفنان الاسبانى العظيم «جويا » بمرض خطير أفقده السمع والبصر والقدرة على الحركة لعدة شهور متواصلة ثم برأ من المرض ولازمة الصمم بعد ذلك للنهاية . . فانطلق يرسم ويبدع حتى آخر يوم فى حياته وهو يشكر ربه لأن آفته لا تعوقه عن آداء عمله .

والفنان المصرى العظيم أحمد صبرى صديق العقاد وطه حسين والحكيم وأول أستاذ مصرى بكلية الفنون الجميلة ظل يرسم والظلام يزحف على بصره تدريجيا حتى عجز عن رؤية موقع ريشته على اللوحة فوضع ريشته

ومات بعد أيام شاعرا بأن مهمته فى الحياة قد انتهت بعجزه عن مواصلة العمل والإبداع . . وبيتهوفن أصيب بالصمم فلم يمنعه صممه من مواصلة الإبداع وتأليف الموسيقى التى لا يسمعها وعزف النغمات التى لا يعرف صداها .

والإنسان الحق الذى يستحق اسم الإنسان وصفته لا يمكن تحطيمه لأن قدراته لا حد لها . . ولأنه كائن فريد لا مثيل له بين بلايين الكائنات التى عرفتها الأرض . . وقد خلقه ربه كما قال أحد العلماء «بدقة تثير الرهبة فى النفوس » لو اطلع البشر على بعض أسرارها .

فصدقنى حين أقول لك : أنت « حكاية كبيرة » جدا . . لكنك لا تعرف أحيانًا قدر نفسك . . ولا تجيد فى أحيان أخرى استخدام قدراتك ومواهبك . . وخسارة ألف مليون خسارة . . أن تتنازل عن عرشك الذى أجلسك عليه ربك بالاستسلام لخوَر الارادة . . أو العجز والكسل . . أو الفشل أو اليأس . . أو نوازع الشر التى لا تليق بمن سجدت لجدّه الملائكة مثلك ، وبمن ينبغى أن يكون دائمًا موضع التكريم والاحترام . . لأنه إنسان !

إلهـــام زعلانـــه !

لا تصدقنى إذا قلت لك مرة أننى جلست لأكتب مقالا فأخذتنى «نشوة الكتابة» ولم أشعر بالوقت وهو يسرقنى . . فالحق أنى لا أكره شيئا فى الحياة مثلما أكره الكتابة ولو تركت لنفسى ما جلست إلى مكتبى إلا لأقرأ واستمتع بما عانى غيرى لكى يسطره على الورق . . وليس هناك بالنسبة لى شىء اسمه نشوة الكتابة وإنما هناك شىء اسمه غناء التفكير «وغلب » التدقيق فى كل كلمة وشقاء الرجوع للمراجع لتوثيق أى معلومة تأتى عرضا فى مقالى . . ثم هناك بعد كل ذلك عذاب الشك فى قيمة ما كتبت وقلق الخوف من ألا يستحـق عناء القـراءة أو قبول القـارئ له أو استحسـانه ! ورغم أن كتابى الحادى عشر قد صدر لى منـذ أيام . . فانى لم اتخلص بعد من وساوسى تجاه ما أكتب ولم أجلس مرة لأكتب دون أن يراودنى خاطر جميل أشبه بالحلم استسلم له كثيرا . . هو أننى قد وجدت لنفسى «عملا» آخر بعيدا عن هذا العناء مع أنى لم أتخيل لنفسى منذ كنت فى الرابعة عشرة من عمرى حياة أخرى بعيدة عن دنيا القراءة والكتابة ولا أصلح لممارسة أى شىء آخر فى الحياة سوى هذا الشقاء الأبدى . .

ومن طول معاناتى معه دخلت حياة أسرتى الصغيرة مفردات جديدة لو

سمعها غريب عنها لظن بعقول أفرادها الظنون . . فنحن فى أسرتى نتحدث كثيرا عن امرأة مدللة متقلبة اسمها «الهام» تزورنى أحياناً فتستريح أعصابى وتسعد الأسرة كلها . . وتهجرنى فى أحيان أخرى فتتوتر أعصابى وتضطرب أحوال الأسرة ويخيم شبح الشقاق عليها . .

وقد بدأت علاقتها بأسرتى من أننى أكتب فى الصباح فى مكتبى بالبيت . . فأعد الأوراق والأقلام . . وارتب مكتبى ليكون فى أجمل شكل ممكن وأدير الموسيقى الناعمة وانزل الكتب التى سأستعين بها من رفوف المكتبة واعدل وضع الصور المعلقة حولى من كل جانب خوفا من أن «تأتى» فتجد احداها مائلة فتستاء وتعود من حيث أتت ولا تفلح معها محاولاتى لاسترضائها . . ثم ارتب هيئتى وأمسك قلمى وأضعه على أول السطر . . وانتظر فيمضى الوقت بطيئا أو سريعا . . ومن حين لآخر تدخل على زوجتى أو ابنتى أو ابنى فيسألنى : هل جاءت «الهام» ؟ فأجيب باقتضاب ورجاء : ليس بعد ، وهكذا حتى يمضى اليوم أحيانا وأُدعى للغداء والخروج فانهض متوترا وأنا أعلن لأسرتى أن «الهام» غاضبة . . ولابد من وسيلة لاسترضائها . .

ومن تجاربى السابقة عرفت أسرتى أن هذه اللحظات هى اسوأ لحظاتى وأكثرها استجابة للتوتر والشقاق . . وأن الأفضل للسلام العام فى أسرتى ألا يجادلنى أحد فى شىء وقتها . . وأن يدخر الآخرون رغباتهم ومناقشاتهم لوقتى السعيد الآخر الذى تزورنى فيه تلك الفاتنة فتمضى معى ساعات الصباح كلها فى مكتبى ثم تغادرنى فى الثالثة أوالرابعة بعد الظهر مودعة منى بكل آيات الاحترام والاجلال . . إذ ما أن أغلق باب الشقة وراءها

حتى أعود إلى أسرتى مبتهجا وأنا أسير فوق السحاب . . واوافق على أى شىء دون مناقشة . .

أما كيف دخلت الهام حياة أسرتى وارتبطت بأوقات سعادتها وتوتراتها فقد كان ذلك منذ عدة سنوات وابنتى فى سن البراءة والسذاجة . . فقد أمضيت ذات يوم ساعات الصباح أحاول الكتابة بلا جدوى ثم نهضت مكتئبا فسألتنى ابنتى عن سبب ضيقى ففسرته لها . . فسألتنى ولماذا لم تكتب ؟ فأجبتها وأنا غائب الذهن : مفيش الهام ! وبإشفاق من يتعجب لعجزى عن حل مشكلة صغيرة هذهِ مع أنها ميسورة الحل سألتنى ببراءة : ولماذا لا تتصل «بها » بالتليفون وتأخذ منها ما تريد لتكتب !

وتنبهت إلى أنها تتصـور أن الالهام فتاة تحمل هـذا الاسم ويتـوقف على حضورها أو اتصالى بها أن يجرى القلم فى يدى . . أو يتعثر. وتأملت الفكرة طويلا وضحكت لها وتمنيت لو كان الأمر بهذه البساطة اذن لتعاقدت مع «الهام» مثلاً واتفقت معها على أن تزورنى كلما أردت أن أحول افكارى إلى كلمات مسطورة . .

وأصبحت حكاية الهام نكتة عائلية نتندر بها . . ثم تحولت إلى إحدى مفردات قاموس حياتنا الجادة كميزانية البيت وحساب البقال وايصال الكهرباء فأسرتى تسألنى حين اجلس للكتابة عن اخبارها وأنا انهى إليها اخبارها يوما بعد يوم حسب الأحوال . . فأنا ضيق الصدر اليوم لأنها زعلانة . . وأنا سعيد اليوم لأنها كانت رائعة معى هذا الصباح الخ . . كما أننى لا اتسامح أبدا مع من يسىء إليها بأى كلمة أو «يدعو » عليها أمامى لأنها « تنكد » أحيانا على الأسرة بدلالها وتقلباتها العاطفية ، وكلما تمادت

هى فى تمردها ودلالها انحنيت إكبار لمن لم يأبهوا لها ولم يتعاملوا معها إلا «بالبرطوشة » القديمة من العباقرة والموهوبين موهبة طاغية تتفجر داخلهم وتحرك أقلامهم بغير عناء وفى أى وقت يريدون . . وأحسست بالشماتة فيها «لخنوعها » لهم واستجابتها لأوامرهم ودعواتهم لها فى أى وقت من الليل أو النهار بل وفى أى مكان مهما كان جميلا أو بشعا . . وإن كنت لا أعجب لذلك كثيراً لأنها من «النساء » اللاتى يتلذذن بالخضوع لمن هم أقوى منهن ويجدن فى ذلك سعادة ومتعة . . ويتلذذن باذلال من هم أضعف منهن ويجدن فى ذلك أيضا سعادة ومتعة ! . .

وإلا فانظر مثلا «أين » كان الأديب الروسى العظيم دوستويفسكى يستدعى تلك الغادرة . . فتواتيه صاغرة على الفور ! لقد كان يستدعيها فى بعض الأحيان فى بهو قذر ملطخ بالحبر الأسود فيكتب وهو واقف على رخامة المطبعة فصولا كاملة من روايته ويتسلمها منه صفاف الحروف مباشرة . . ومع ذلك لم تكن تنفر ولم تتأب عليه . .

وأكثر من ذلك فقد استدعاها عدة ليال متوالية إلى مائدة صغيرة إلى جوار فراش زوجته وهى تحتضر فلم تتشاءم من المكان وإنما أملت عليه فصولا رائعة من إحدى رواياته . . وأكثر من ذلك باركت بداية العلاقة بينه وبين سكرتيرته الجديدة التى استعان بها لمساعدته فى تلك الظروف فكانت بداية التفاهم تحت اشرافها إلى جوار سرير الزوجة المحتضرة . . وشهدت زواجه منها بعد رحيل زوجته ببضعة أسابيع لا تزيد . . ناهيك عن الغرف القذرة التى كان يستدعيها إليها فى معظم سنوات شبابه ورجولته وهو يكتب «الجريمة والعقاب » . . و «المساكين » و« المقامر» أو

ثلوج سيبيريا الموحشة التى صاحبته فيها ٤ سنوات طوال كتب بعدها روايته «ذكريات من منزل الأموات » التى صورت عذاب المنفيين فى سيبيريا والعقاب الجسدى الذى يتعرضون له وأثرت فى القراء تأثيرا عظيما حتى أن قيصر روسيا الاسكندر الأكبر كانت دموعه تسقط على صفحات الرواية وهو يقرأها . . وأمر بتشكيل لجنة لبحث الغاء العقاب الجسدى الذى صوره دوستويفسكى وانتهى البحـث بالغائه سنة ١٨٦٣ . . بفضل هذه الرواية قبل كل شىء . .

فانظر كيف كان يتعامل «معها » دوستويفكسى بمنتهى الحزم والشدة ودون أى اعتبار لمشاعرها ؟ لقد كان يكتب فى كثير من الأحيان لأنه فى حاجة ملحة للنقود لسداد ديون القمار ، أو ليراهن من جديد على خانتى الأحمر والأسود فى الروليت ويخسر المزيد أو ليجد قوت أسرته . . ولم يكن يخفى ذلك عليها ولا يجمله وإنما يأمر فيطاع . . إنه عبقرى وموهوب ولا تجرؤ «بنت » من بنات الأفكار على مخالفة أمره . . وهكذا ينبغى أن يكون العباقرة ، بل انظر أيضا كيف كان يعاملها أونوريه دى بلزاك الروائى الفرنسى العبقرى (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠) الذى ظل يكتب فى غرفة تسبح فى القذارة وتمرح فيها الحشرات ٦٠ صفحة كل يوم لمدة ٣ سنوات متواصلة أتم خلالها ٣١ كتابا من كتب المغامرات نشرها كلها باسماء مستعارة ليكسب قوت يومه . . ثم كيف ظل بعد أن حقق مجده الأدبى يستنزفها بلا توقف ولا إجازة ليوم واحد . . ولا يحلو له استدعاؤها إلا فى الثانية من صباح كل يوم فينهض من فراشة إلى المكتب مباشرة . . وهو يرتدى زى الرهبان ويجلس للكتابة وبجواره ابريق للقهوة يتأجج باستمرار فوق الموقد

ويظل يكتب حتى السادسة . . ويراجع تجارب الطبع لروايته الجديدة حتى التاسعة ثم يعود للكتابة طوال النهار إلى أن يسقط اعياء وينام بضع ساعات وينهض للكتابة من جديد وتناول القهوة بغير توقف . . صحيح أنها استنزفته كما استنزفها فمات فى سن الواحدة والخمسين قبل أن يستمتع كثيرا بالثراء الذى ظل يعمل له طوال حياته . . وبعد أن تزوج الارملة التى ظل ١٢ عاما يحبها وهى زوجة رجل آخر وراوغته ٥ سنوات بعد ترملها قبل أن تقبل زواجه . . لكن هل شكت «الهام» مرة من ارهاقها معه ؟ أبدا . . بل كان يأمر فتطيع . . وينهر فتتأدب فى حضرته . . كما ينبغى دائما لمن يتعامل مع العباقرة والموهوبين . .

نعم لقد كان الأديب العظيم فيكتور هوجو أكثر رقة « معها » لكنها أيضا لم تكن تجرؤ على مخالفته . . وكانت تزوره فى بيته حين يقيم مع زوجته فاتـرة المشاعر « أديل » وتملى عليـه ما يريد ، وتـزوره فى الشقة الصغيرة التى اتخذها لعشيقته ممثلة المسرح غير الموهوبة جولييت التى تفانت فى حبه وتستجيب لاشارته . .

ولاحـظ هوجـو أن زياراتها لـه فى مسكن جـولييت أعظـم أثراً وفـائدة للأدب . . فأكثر من زياراته لجولييت التى لم تقصر هى الأخرى فى توفير الجو الملائم له ليسطر على الورق أعذب الأشعار واجمل الروايات . . فقد ملأت شقتها بصور العبقرى المحبوب وأعدت له فى غرفة نومها ركنا به مائدة للكتابة ومصباح قوى ومدفأة وأوراق لا حصر لها وكانت تمضى الليل بطوله راقدة فى فراشها ترقب شاعرها العظيم وهو يكتب ولا ترفع عينيها عن رأسه . . واستمر ذات ليلة يكتب حتى أشرق الصباح وانهى

احدى رواياته فرفع رأسه إليها معتذرًا وهو يقول برقة :

هل جعلتك تنتظرين طويلا؟

فبادرته بحرارة : لم أكن انتظر . . وإنما كنت انظر إلى رأسك النبيل الملهم . . فيتضاعف حبى لك واعجابى بك . . وازداد سعادة !

وهكذا ليلة بعد ليلة . . ويومًا بعد يوم . .

ومثل «هوجو » كثيرون من العباقرة والموهوبين فى الماضى البعيد والقريب والحاضر . . وكلهم لا يستعصى عليهم الهام ولا خيال . . ولا يراعون مزاج عرائسه ولا أوقات راحتها . . فالأستاذ أنيس منصور مثلا لا يحلو له فى هذا الشتاء القارس ان يستدعى عروس الهامه إلا فى الرابعة من صباح كل يوم ولا يفرج عنها إلا فى العاشرة صباحا والأستاذ أحمد بهجت لا يّستقبلها الا من منتصف الليل وحتى السادسة صباحا . . والأستاذ الكبير نجيب محفوظ يرغمها على تقبل نظامة الحديدى فيأمرها بالحضور فى أيام محددة من الأسبوع من السادسة مساء حتى الثامنة فإذا دقت الساعة الثامنة أمرها بالانصراف فورا ولو كانت الجملة فى منتصفها . . ولا يقبل رجاءها أن ينتظر لحظة حتى تستكمل الجملة الناقصة . . وإنما يشير لها إلى الباب بحزم فتخرج ذليلة وتعود إليه فى الموعد المحدد بالدقيقة والثانية . .

هؤلاء هم « الرجال » حقا . . أما امثالى من عديمى الموهبة فهؤلاء هم من تشعر «هى » معهم بسيادتها وجبروتها . . وسطوتها ودلالها . . وعزة جمالها . . ولا حيلة لهم فى ذلك . . ولا حيلة لها أيضا فيه لأنه من أحوال الحب وعلاقات القوة فيه ولأن من يحب أقل يتحكم أكثر ومن يحب أكثر

يخضع أكثر . . وهى بخيلة بمشاعرها على المتدلهين . . والراكعين . . سخية بها على الأقوياء والموهوبين . .

ويبدو أننى كنت غارقا فى التفكير فى كل ذلك إلى حد الذهول وأنا جالس إلى مكتبى أحاول أن أكتب مقالى لمجلة زهرة الخليج حين رن جرس التليفون بجوارى فإذا بصوت السيدة عبلة النويس رئيسة التحرير يسألنى لماذا لم أكتب للزهرة منذ أسبوعين . . فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أجيبها ذاهلا :

إلهام زعلانة !

وتعجبت من نفسى كيف افلتت هذه العبارة منى ولم يسبق لى الحديث معها بهذا الشأن وسكتت هى لحظات لعلها تحرجت خلالها من اقحامى لها فى «شئونى العائلية » ! ثم أدركت الموقف سريعًا . . ونصحتنى ببذل الجهد فى «استرضائها » ووعدت . . وحاولت . . وما زلت أحاول ! . .

الجــدران العاليـة !

وجدت نفسى فى ميدان بيكاديللى بلندن عند الأصيل . . الشباب من حولى يجلسـون حول النافـورة . . ويتسكعون فى كل مكـان . . يضحكون ويغنـون ويجلسون بـاسترخـاء يعطيك الإحسـاس بـأنهم يستمتعون حتـى بـالفـراغ والصمت وأنـا وحـدى الـذى لا أبتهج لشـىء . . ولا أستمتـع بشىء، لماذا؟ لا أعرف . هل كنت غاضبـا لشىء؟ أو حزينا على شىء ؟ أبدا . . هل فشلت فى تحقيق هدف فضايقنى ذلك ؟.

إننى فى إجازة ولا هدف لى إلا إراحة جسمى وعقلى من ضغوط العمل والحياة لأجدد نشاطى وأعود لمواصلة عملى وقبل السفر يصل اكتئابى إلى قمّته ويتركـز هدف حيـاتى فى أن أنجح فى الحصـول على الإجازة وتـرتيب إجراءات السفـر وكتابـة الأعمال الصحفية التى ستنشر خـلال غيابـى ثم انهض صباح يوم السفر سعيدا إذا كنت قد نجحت فى اقتناص ساعتين أو حتى سـاعة من النـوم . . وأصل إلى مطار الـوصول سعيدا . . وأبـدأ أيام أجازتى مبتهجا . . ثم تمضى أيام قليلة فأحس أن كل شىء قد عاد إلى ما كان عليـه وبدأت أيام الإجازة تثقـل علىّ ، وبدأت أعد الأيام البـاقية على موعد العـودة لكل ما ضقت به واكتـأبت منه وتلفتُ حـولى أرقب الشباب

السعداء . . بـل والكهول أيضـا وأتساءل : لماذا هـم مبتهجون هكـذا هل لأنهم شباب والحياة ممتدة أمامهم تعـدهم بالكثير والكثير ؟ وإذا كان هذا هو السر . . فلماذا يسعد الكهول والشيوخ أيضا ؟ هل حياتهم جميعا خالية من المشـاكل والأحزان ؟ ليـس هناك من تخلو حيـاته من الهمـوم مهما كان حجمها . . ولا بشر بلا مشاكل ولا أحزان إلا فى الجنـة التى «دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام» . .

ووجدت نفسى وهـذه الخواطر تدور فى ذهنى أمـام دار للسينما تعرض فيلما أسبانيا اسمه التلال الساخنة فدخلتها بغير تفكير . . كان الفيلم عن زوجة شـابة اكتشفت أن زوجهـا كان فى بعـض الفترات على علاقة بـأمها المطـربة الكبيرة المشهـورة فقتلتـه واتجهت الشكـوك إلى كثيريـن من بينهـم أمها . . واستغـرقتنى أحـداث الفيلم إلى أن تنبهـت على آلام المطربـة التى ضاقـت بتعذيب إبنتهـا لها لخطيئتها القديمة ، تغنـى أغنية جميلة حـزينة تقول فيها :

ـ تذكرّنى . . وأنت تعانى بشدة .

ـ تذكرنى . . وأنت تتألم .

ـ تذكرنى . . كلما واجهت أمرا صعبا فى حياتك .

ـ إنك فى موضع القلب من جسدى .

ـ وأريد أن أشاركك عذاباتك وآلامك .

وبكـت المطـربـة الكبـيرة وهـى تغـنـى هـذه الأغـنية بحـرقة . . فوجـدت دمـوعى تترقـرق فى عينى فى الظـلام ، وتعجبت مـن نفسى بـل وخجلت منها . . ولم أستطع مواصلـة المشاهدة ، وتسللت من دار السينما

إلـى الشـارع ومشيت بـلا هـدف ولا متعـة . .

وفى اليوم التالى عـدت إلى نفس الدار لأستمع إلى هـذه الأغنية الجميلة مرة أخرى وأسجل كلماتها فى مفكرتى وتنبهـت إلى أنها تصور بصدق حالة وجدانية حقيقية من أحوال الإنسان هـى أننا حين نعانى بشدة فإن أول من نتذكره هو : مـن «يحتل موضع القلب من أجسادنـا » ، ونفعل ذلك كأننا نحاول أن نحتمى به مما يؤلمنا . . أو كأننـا نتمنى لو كان معنا ليخفف عنا معاناتنا . .

لهذا فما أحوجنا دائما لمن يهتمون بأمرنا ونهتم بأمرهـم . . ونعرف عن يقين أنهم يتألمون لآلامنا . . ويسعدون لسعادتنا . .

وما أجمل أن يجد الإنسان من يشاركه شجونـه ويشعره بأنه ليس شجرة وحيـدة نبتت فى صحـراء كل مـن فيها مشغـول بنفسه عـن الآخريـن . . فالإنسان كائن اجتماعى لا يسعد إلا وسط بشر مثله وآلامه جديرة دائما بأن تنال من الآخرين الإهتمام والإحترام مهما كانت صغيرة ، لسبب هام هو أن الإنسان نفسه وكل ما يخصه من شئون وشجون جدير بالاحترام . .

إذن كيف نهين إنسانيته . . أو نقهره . . ونعذبه . أو نتجاهل آلامه أو نستهزئ بها . .

لقد سـألنى مذيـع بإذاعة الشرق الأوسط منـذ أيام : ما هـو الأسلوب الذى لا تسمح لنفسك بأن تستخدمـه فى الرد على هموم القراء . . فأجبته بلا تـردد : أسلوب السخريـة من هموم الآخرين ولـو كانت تـافهة . . أو أسلـوب الإستهـزاء بها لأن كـل مـا يخص الإنسـان جـديـر بـأن يعـامـل بجدية وبكل الإهتمام والإحترام . .

وسئلت مرارًا ما هى الشروط التى ينبغى أن تتوفر فيمن يتصدى لإبداء الرأى فى مشاكل القراء ، . . فأجبت فى كل مرة : لا شىء سوى أن يكون مستعدا لأن يحترم آلام الآخرين ويعطيها بعض وقته واهتمامه ، ذلك أن مجرد الإستماع باحترام واهتمام لمن يشكو إليك قد يخفف عنه بعض همومه ويشعره بالمشاركة الإنسانية ويزيح عن صدره بعض بخارها المكتوم ، أما الرأى والمشورة فليس «المستشار» بأحكم من «المستشير» ، لكنه فقط ينظر إلى المشكلة من خارج دائرتها فيتسع له مجال الرؤية أكثر مما يراه الغارق فيها الذى ينظر إليها من مركز الدائرة ، كما أنه يفكر مع صاحب المشكلة وهو ليس واقعًا تحت ضغط انفعالاتها وتأثيراتها النفسية التى قد تؤثر على صفاء تفكير صاحبها . .

لهذا فكل إنسان يستطيع أن يقوم بهذه المهمة فى دائرة حياته الشخصية ومع أهله وأصدقائه فتتسع دائرة المشاركة الإنسانية . . بدلا من أن تنحسر ويتحول كل إنسان إلى سجين فى زنزانة انفرادية هى زنزانة شجونه وهمومه وأفكاره ، إن هناك كلمة إنجليزية جميلة تقول : الناس يبنون جدرانا بدلا من أن يبنوا جسورا . . لهذا فهم يزدادون وحدة . . وتباعدا بدلا من أن يزدادوا اقترابا . .

وهذا صحيح للأسف . . لأن الجدران تحجب البشر عن البشر ، والجسور تصل بينهم ، نحن فى حاجة إلى مزيد من الجسور الإنسانية وقليل من الجدران العازلة . .

واستعداد كل إنسان لأن يستمع للآخرين ويفكر معهم وفيهم «جسر» من هذه الجسور ، وانكفاء كل إنسان على نفسه ومشاكله وعزوفه عن أن

يعطـى من اهتمامـه للآخـريـن . . «جدران عـالية » تحوّل البشر إلى جـزر متباعدة وتزيد من جفاف الحيـاة وعنائها ، والإنسان يحتاج دائمًا إلى «أين » يضع عليها رأسه ويستريـح ويبثها شجونه وهمومه ، وهو احتيـاج إنسانى قديم تأكدت من أهميته عندما أخطأت ذات مرة منذ عشرين سنة وبحت ببعض مـا كان يقـض مضجعى لصـديق عجيـب لى ، كان مـن طباعـه الغـريبة ألا يطيـق سماع شكوى لأحـد مع كثـرة شكـواه هو لـلآخريـن ، ويتهرب من ذلك بكل وسيلة بـل ويعتبره محاولة عدوانية لإفساد صفائه ! وقد ينهر صديقه إذا اخطأ وحاول إشراكه معه فى بعض همومه وكان قد جاء إلى مكتبى ليصطحبنى إلى بيت صديق نمضى معه السهرة وغادرنا المكتب وسرنا على الأقـدام بضع خطوات . . وكنـت ضيق الصدر بما أعـانيه . . واحـس بتعاسـة شديـدة ولم أكن أريـد شيئًا مـن صديقـى هذا سـوى أن يسمعنى . . فنسيت حـذرى منه ومعرفتى بطبيعتـه وانسقت وراء ضعفى وبُحت له ببعـض همومى وتنبهـت خلال استغراقى فى ذلـك إلى أنه يتلفت حوله متشـاغلا عنى . . ثم فوجئـت به يصيح فى أثر سيارة أجـرة عابرة : تاكسى . . تاكسى ! فتوقفت عن الكلام مذهولا وسألته بدهشة عن سبب محاولته إيقاف سيارة أجرة ، فأجابنى مرتبكا وهو لا يكاد يدرى بما يقول : لكى تنقلنا إلى بيت الصـديق لأننا تأخرنا عليه ! فأحسسـت بالعرق البارد يكسو جسمى وأطرافى وشعرت بخجل ربما لم أعـان مثله فى موقف آخر فى حياتى وسحبته من ذراعه صامتـًا إلى مكان انتظار السيارات حيث تنتظرنا سيارتى وسيـارته ! وركبنا إحداهما وتـركنا الأخرى وأحسست بغصـة مؤلمة تعقد لسانى فلم أنطق بحرف . . ولم أسمع شيئـا مما قاله مبررا به «نسيانه»

فجأة أن معنا سيارتين . . وكيف أنه ينسى ذلك كثيرا فيركب سيارة أجرة ويترك سيارته مما يثير له بعض المشاكل ! . . وظللت صامتا إلى أن وصلنا بيت الصديق وأمضيت فيه أتعس سهراتى . .

ومع ذلك لم أغضب منه . . وإنما غضبت من نفسى لأنى طلبت حاجتى عند من ليس مؤهلا لأن يلبيها لى ، واستمرت صداقتنا بعدها عشرين سنة لم أقع خلالها معه فى نفس «الخطيئة» مرة ثانية . . وفتحت له صدرى طوالها بسماحة ليصب فيه همومه وشجونه وأحزانه كلما احتاج إلى ذلك ، ولم يكن هذا قدرى معه وحده . . بل كان كذلك مع البعض فى محيط الأهل والأصدقاء الذين كنت أسمع لهم دائما ولا يسمعون لى . . ولا أثقلهم بما لا يطيقون مسَلما بأن كل إنسان ميسر لما خلق له ، وبأنه ليس من الحكمة أن نطلب من البعض ما لا تسمح به طبائعهم حتى لا نحزن إذا تلقينا منهم ما هو أقل مما نريد ونتوقع ولكيلا نفقدهم أو ترتفع جدران عالية بيننا وبينهم . .

أيكون هذا سببًا من أسباب اختيارى للإهتمام بهموم الآخرين فى كتاباتى بوجه عام ؟ أو فى أنى لا أصدُّ قارئًا أو صديقًا يريد أن يبثنى همومه ولو تم ذلك على حساب وقتى وعملى وأعصابى ؟

لا أعرف على وجه اليقين . . بل إنى لا أعرف حتى الآن إذا كنت أنا الذى اخترت هذا الاتجاه إراديًا . . أم هو الذى اختارنى بلا إرادة من جانبى . . لكنى أعرف على الأقل عمق الألم . . بل «والخجل» اللذين يحسُّ بهما الإنسان حين يصدم بأن مشاعره وأحزانه لم تلق ما تستحقه من الإحترام عند من توجه بها إليه . . وطلب منه عونه عليها . .

وأعرف أيضا . . أننا كما قالت أغنية المطربة الأسبانية الحزينة نحتاج جميعًا لمن نتذكره ونحن نعانى بشدة . . ونأمل فى مشاركته الوجدانية لنا على البعد . . ونتعلق بالأمل فيه لكى يساعدنا على آلامنا سواء أكان يحتل موضع القلب من أجسادنا . . أم موضع الصديق من مشاعرنا وعقولنا . .

وأعرف أن أتعس الناس هو من لا يجد لا هذا . . ولا ذاك . . أما أبأسهم . . فهو بلا جدال من يتلفت صديقه حوله باحثا عن سيارة أجرة وهو مستغرق فى بثه همومه وأحزانه لهذا الصديق سامحه الله وسامح أمثاله من بُناة الجدران الكئيبة العازلة بدلا من الجسور الجميلة الواصلة بين البشر . .

سنة حلوة .. يا جميل !

كانت ليلة حافلة بالغرائب والمفاجآت ! . . فقد كنا فى أجمل سنوات الشباب . . وقد جمعت بيننا الاهتمامات الثقافية وحُب الفن والسهر فأصبحنا «عصابة» مترابطة من بعض الصحفيين والكتّاب والشعراء والفنانين نمضى معظم سهراتنا معًا فيغنى أصحاب الأصوات الجميلة منا وكانوا أربعة منهم مطربة محترفة والباقون من الهواة والهاويات . . ويعزف على العود من يجيدون العزف عليه وكان من بينهم ملحن شاب ومدير تصوير بالتليفزيون ودبلوماسى شاعر ومذيع ، ويمضى الوقت سعيدًا بين الغناء والعزف وإنشاد الشعر الذى يكتبه بعضنا والمناقشات الأدبية والتعليقات الذكية . . والقفشات الضاحكة ، ،

. . وقد عُرفنا بين المعارف والأصدقاء بأننا لا نلبى دعوة أحد للعشاء أو السهر إلا إذا كان باقى أفراد الشلة مدعوين معنا وألا فسوف نسهر وحدنا فى أحد بيوتنا . .

وكان أكثر الداعين لشلتنا . . والاستمتاع بصحبتها محاسب فى منتصف العمر يقيم فى فيلا بالمعادى . . يكتب الشعر العمودى ويضيق بأعمال المحاسبة ورتابة الحياة العملية التى فرضتها عليه . . وينجذب إلى جونا البوهيمى ويدعونا كل ١٠ أيام إلى العشاء والسهر معه فى بيته ووسط أسرته .

وكانت السهرة تبدأ عادة بالسمر ثم العزف والغناء ثم ينتهز مضيفنا الفرصة التى ينتظرها منذ البداية لينشدنا «قصيدة الليلة » ويسمع رأينا فيها . وكان شاعرا مجيدا بحق ونستمتع بانشاده للشعر ونحن من هواته ، لكننا كنا نضيق فقط «بإسرافه » فى كتابة الشعر . . وننصحه بتركيز قصائده فى أبيات معدودة معبرة لكى تخف وطأتها علينا . . فيستجيب مرة . . ثم ينساق وراء طبيعته مرات وينشدنا مطولاته ! وكان من عادتنا أن نقاطعه بصيحات الاستحسان وطلب اعادة بعض الأبيات كل فترة فأصبحنا نقاطعه بصيحات الاستحسان المبالغ فيه وطلب التوقف قليلا بين كل مقطع وآخر لكى نتفكر فى معنى الأبيات السابقة ونستجلى حلاوتها وبلاغتها قبل أن تضيع منا .

ثم تصاعد الأمر تدريجيًا حتى انتهى إلى أن أصبح يُنشدنا بيتا واحدًا من الشعر . فنظل نستحسنه بعاصفة من الهتاف والتهليل والضحك تستمر بضع دقائق . . وندعى أن نشوة الشعر قد افقدتنا السيطرة على أنفسنا فضحك من ضحك . . وغنى من غنى . . وصرخ من صرخ ، إلى أن ينجح بصعوبة فى اسكاتنا والقاء بيت آخر . . فينفجر الضجيج من جديد ويتواصل عدة دقائق ، وخلال ذلك قد ينهض أحدنا محاولا الاعتداء عليه «بالضرب » من شدة النشوة متهمًا إياه فإنه يريد أن «يُجننا» ويفقدنا ما بقى لنا من عقول بهذا الشعر الخلاب ! . . ومضيفنا الشاعر لا يغضب وإنما يروى لنا عن الخليفة العباسى الذى شق قميصه طربًا لبعض أبيات الشعر . .

وفى كل مرة كنا نغادره فيها يقول بعضنا لبعض ونحن على باب الفيلا

أننا قد تجاوزنا الحدود مع الرجل الطيب الذى يُحبنا وسيغضب منا ويقاطعنا ، فلا تمضى عشرة أيام حتى يتصل بنا داعيا العصابة إلى سهرة جديدة !

وحين اقتربت ليلة رأس السنة الميلادية ذلك العام كان صديقنا الشاعر قد «حجزنا» منذ وقت مبكر وأقسم علينا ألا نسهر إلا فى بيته . . واتفقنا على ذلك لكن واجهتنا مشكلتان طارئتان الأولى أن نجمة الشلة المطربة المحترفة المضروبة مثلنا بهواية الأدب قد لبت دعوة صديقة لها لقضاء السهرة فى بيتها بحى المعادى أيضا . . وتنتظر منا ألا نتخلى عنها . . والثانية : أن أحد أصدقائى كان يعيش قصة رومانسية مفاجئة ملخصها أن فتاة القلب التى تعاهد معها على الزواج وهما زميلان فى سنة واحدة بالجامعة قد تخلت عنه لأنه كعادته فى كل شىء فى حياته يفضل «التروى» وبطء الحركة والتمهل ، فلم يتمكن من إنهاء دراسته والتخرج إلا بعدها بثلاث سنوات فيئست منه وتزوجت غيره وسافرت معه للخارج . لكن فتاة القلب القديمة لم تسعد بحياتها مع زوجها وحصلت على الطلاق بعد كفاح مرير مع زوجها الذى يحبها ويأمل فى عودتها إليه . . وعادت لمصر واتصلت بصديقى والتقيا لأول مرة بعد ٦ سنوات وأبدت ندمها على تخليها عنه وطالبته بأن يصححا خطأهما المشترك ويتزوجا قبل أن يضيع العمر . . وأراد صديقى أن يفكر «بروية» فى الأمر . . فصرختُ فيه محذرا من أن يضيع فرصته الذهبية معها مرة أخرى ونصحتهُ إذا كان ما زال يحبها ويرغبها بأن يرتبط بها على وجه السرعة ثم يفكر بعد ذلك «بروية» فى الأمور الأخرى خاصة وهى لم تنجب من زوجها . . وتحمس صديقى قليلا

ثم فاجأنى برغبته فى أن يدعونى وشلتى إلى بيته فى ليلة رأس السنة تلك لكى يدعو فتاته معنا ويقدمها لأمه وأخوته لأول مرة ، ويسعدها بسهرة جميلة تكون بداية لمشروع الارتباط . . والح علىَّ فى تلبية الدعوة لأنها تريد أن تسهر وتسلو احزانها وتغنى له . . سنة حلوة يا جميل . . وتودع الشقاء الذى اعتصرها خلال السنة المنقضية .

ووقعنا فى حيرة ، وتشاور حكماء الشلة ثم انتهينا إلى خطة فريدة هى أن نبدأ الليلة مع صديقى وأسرته وفتاته من الثامنة مساء حتى منتصف الليل ، ثم ننتقل إلى بيت صديقنا الشاعر فى المعادى ، ثم نطوف فى الفجر ببيت صديقةنجمتنا من باب المجاملة لها ولو لنصف ساعة . ونفذنا ذلك فعلا . . واحتفلنا بالسنة الجديدة فى بيت صديقى ونزلنا منه بعد منتصف الليل بدقائق ونـزل معنا ليوصل فتاته إلى بيتها بسيارة أجـرة ويودعها وداعاً عاطفيًا لائقًا يجددان فيه موعد القـران . وانطلقنا نحن إلى المعادى ووجدنا الشاعر « العمودى » يتحرَّق شوقا لمجيئنا واجتمعنا حول المائدة وقد نوينا أن نتظاهر بالأكل لأننا قد تناولنا عشاءنا فى بيت صديقى لكن الشاعر المحاسب لمح تراخينا فهددنا بأننا إن لم نأكل بالشهية الواجبة فإنه سوف ينشدنا على الفور قصيدة من مائتى بيت فانقضضنا على الطعام غير عابئين بما نعانيه من تخمة وأوجاع المعدة ! ثم فجأة رن جرس الباب ودخلت صديقة مطربتنا ترتدى فستان سهرة فاخرا وتضع فراء أبيض على كتفيها ومعها رجل فخم المنظر عرفنا انه زوجها وفهمنا أنها تتعجل صديقتها للذهاب معها فتمنينا لو استطاعت أن تتخلص منها لنمضى باقى السهرة فى مشاغبة صديقنا الشاعر . لكن السيدة وقفت باصرار تطلب من

صديقنا ومنا أن «نتفضل معها» غير مبالية بمراعاة مشاعر صاحب البيت الذى يستضيفنا . . وتعجبنا لذلك وكدنا نرفض التحرك ولتذهب هى وزوجها إلى الجحيم ، لكن نجمتنا بدت محرجة من صديقتها . . وتنتظر منا ألا نخذلها . . فطلبنا من السيدة أن تنتظر على الأقل أن ننتهى من العشاء . . فقبلت لكنها ظلت واقفة على رءوسنا كأنها تحرسنا . . فتوتر الجو ولم نجد بُدا من الاستجابة لرجاء صديقتنا المطربة وودعنا صديقنا آسفين ومحرجين وركبنا السيارات إلى بيت ذات الفراء الأبيض الغريب . . ودخلنا إليه فإذا بنا وسط صالون واسع كبير يتناثر فى جوانبه رجال وسيدات فى ملابس السهرة ، لا تبدو من سحنهم وأجسامهم القوية أنهم من هواة الأدب أو الشعر أو الفن الأصيل . ولم نجد مفرا من الجلوس منكمشين فى جانب من الصالون ونحن نأمل أن تنجح صديقتنا فى فك سجننا فى أقرب فرصة . . وتلفت حولى اتطلع إلى وجوه الرجال الغليظة فتعرفت فيها على ثلاثة من مدربى الكرة ورجال الأندية الرياضية الذين تنشر صفحات الرياضة صورهم . . وعرفت أننا قد دعينا إلى بيئة رياضية بعيدة عن طبيعتنا . . ثم دُعيت مطربتنا الأولى للغناء . . فلاحظت أنها قد استجابت على الفور وبغير تدلل كما تفعل أحيانا معنا قبل الغناء . . ولاحظت أيضًا أنها لا تغنى استمتاعًا بالجلسة الطيبة والأصدقاء الذين يجمعهم الود والاخلاص كما تفعل معنا وإنما تغنى وحسب ! ثم لاحظت أن آداب الاستماع التى ألفناها فيما بيننا غير مرعية فى هذه الجلسة السمجة . . فلا استحسان رقيق فى مكانه الصحيح . . ولا انسجام مع غنائها ينم عن ذوق فنى ولا تعليقات تنم عن فهم للغناء أو الموسيقى ولا

شيء سوى «جعير» كجعير جمهور الكرة فى المدرجات . ثم تعدى الأمر فساد الطبع الفنى إلى حدود قلة الذوق ، حين طالبها البعض بغناء أغنيات لمطربة أخرى منافسة ، وأشفقت على نجمتنا من الضيق الذى سينتابها وهى ترفض بعصبية وتلقن الطالب درسًا فى الذوق ففوجئت بها تصمت قليلا ثم تتجاهل رغبته وتواصل الغناء بلا مزاج ! وأنهت غناءها وطلبت بالحاح من فنانى الشلة الهواة الغناء والعزف . . وفجأة قفز إلى ذهنى خاطر مزعج طردته من رأسى على الفور . لكنه عاد يلح عليَّ بعناد . . فملت على جارى الدبلوماسى الشاعر الذى نداعبه بمناداته بلقب السفير وقلت له : سعادة السفير . . يبدو أننا لسنا مدعوين كأصدقاء للسهر فى بيت أصدقاء جدد لنجمة الشلة . . وإنما نحن على الأغلب « فرقة» فنية مؤجرة لاحياء حفل رأس السنة عندهم !! فرقة هى نجمتها الأولى ، وفلان وفلان وفلانة الخ . . هم المطربون المساعدون والعازفون . . ونحن وباقى الشلة من «السنيدة» والكورال ! لقد خانتنا فلانة «وقبضت» علينا . . والا فكيف تفسر عناد السيدة ذات الفرو الأبيض واصرارها على أن نغادر معها بيت الشاعر بلا مراعاة لمشاعره؟!

ونظر إليَّ صديقى مذهولا . . ثم قال بعد برهة : لقد شككت فى الأمر قليلا . . لكنى لم أتصوره . . يا دى الفضيحة . . كيف نخرج من هذا المكان!

ولم نكن رغم كل شيء على استعداد لأن نحرج صديقتنا المطربة الخبيثة رغم إحراجها لنا . . ولا لاثارة أزمة لأناس لم يخطئوا فى حقنا ولم يكن هناك مفر من الحفاظ على الشكل والصبر إلى أن تنتهى الليلة على

خير. وكعادتى فى مثل هذه المواقف حاولت أن أتغلب على احساسى بالحرج بمحاولة تلمس الجانب الفنى والهزلى من الليلة . وكان صديقى الدبلوماسى معروفا بيننا بأنه «خواف » أكثر من اللازم فقررت أن أثير مخاوفه وقلت له : وهل تعرف ماذا يصيب «الفرق» التى تتقاضى أجرها لاحياء ليلة ثم ينصرف أفرادها أو بعضهم قبل الموعد المناسب ؟

فسألنى : ماذا تقصد ؟

فأجبته وأنا أتكتم الضحك : كلك نظر . . هؤلاء رياضيون صحتهم جيدة ، وأضعف واحد فيهم يجرى حول الملعب كل صباح عدة دورات . . ونحن كما ترى لن نتحمل فى أيديهم «مناقشة» عنيفة واحدة لو حاولنا الانسحاب !

فاختلط الحرج بالخوف فى وجهه وهو يهمس : الله يخرب بيتك يا فلانة . . أهذه آخرة الصداقة والعشرة ! !

وغالبت الانفجار فى الضحك بصعوبة بـالغة . . . وراقبت باقى أفراد الشلة وهم يتبينون حقيقة الأمر تدريجيًا وتتجمع حبات العرق على جباههم إلى أن طلع صبـاح اليوم الأول من السنـة الجديدة ولم نصدق حين وجـدنا أنفسنا خارج الفيلا أمام سياراتنا . وبغير اتفاق مسبق بيننا رفض كل من ليس معه سيارة أن يركب مع المطربة وتركناها تنصرف وحدها فما أن اختفت عن الانظار حتى انفجرنا فى الضحك والسباب والوعيد بطردها من الشلة نهائيًا . . اللهم إذا اعطتنا «أجرنا » بالحق والعدل كما قبضته ! !

وعدت إلى بيتى وأنا أقول لنفسى إنها ليلة لا تنسى ولم أتصور بعد كل ما جرى أنها يمكن أن تخفى لى المزيد من المفاجآت الا حين دق جرس

التليفون وسمعت صوت صديقى المتمهل فى كل شىء ضعيفا واهنا يطلب منى ان آتى إليه على الفور فى مستشفى الهلال الأحمر ! وهرولت إليه ففوجئت بمنظره والضمادات فوق وجهه ويديه والسجحات والكدمات تملأها وقد انتفخ وجهه كالبالون ! . . وهتفت به : ماذا حدث؟ فأجابنى ببطء خُذنى عندك فى البيت أولا لكيلا ترانى أمى وأنا على هذه الحال وسأروى لك ما حدث فى الطريق . . وأركبته السيارة بصعوبة بالغة وهو يتأوه ويتوجع مع كل حركة . . وروى لى القصة فأنستنى كل ما جرى لى فى تلك الليلة الغريبة . لقد قام صديقى التعس بتوصيل فتاته إلى بيتها وتوقفت سيارة الأجرة أمام منزلها فنزل وانحنى على العداد ليقرأه «برويَّه» . . وتمهل كعادته ثم رفع رأسه واستدار فإذا بلكمة كقذيفة المدفع تصطك بوجهه وتحطم نظارته تعقبها لكمة تطرحه على الأرض تليها ركلات كركلات الخيل القوية تنهال عليه وتدك عظامه ووجهه وهو مستلق على الأرض بلا حول ولا قوة ولا فهم لما يجرى . من الذى يضرب ؟ لا يعرف ! لماذا يضربه ؟ لا يعرف أين فتاته من كل ذلك ؟ لا يعرف . . وأخيرا استسلم للاغماء ثم أفاق منه فوجد نفسه جالسًا على الرصيف مبلل الوجه بالماء والدماء تسيل من وجهه وبجواره رجل لا يعرفه مخمور ويبكى ويطلب منه الصفح لانه لم يتمالك نفسه حين رآه يعود مع مطلقته التى يحبها ولن يسمح لرجل آخر بأن يأخذها منه بعد منتصف الليل فعرف أنه الذى تريد مطلقته أن تتزوجه فأراد أن يفتك به وبها . . ولكنها كانت أسرع استكشافا للخطر ، فما أن رأته يترصدها قرب البيت حتى صرخت فزعة وهرولت من سيارة الأجرة وصعدت الدرج بسرعة ألف ميل فى الثانية إلى

شقتها وأغلقت الباب عليها فلم يتمكن منها . . وقد تم كل ذلك وصديقى «منحن » على عداد سيارة الأجرة يتفحصه بامعان ثم استدار ليواجه ثورًا هائجًا على غير انتظار !

ورغم كل ذلك فلقد رفض صديقى بعناد واصرار أن نتوجه لقسم الشرطة للابلاغ عن الجريمة وسامح قاتله ملتمسًا له العذر . . وكان كل ما طلبه منه بعد «الطحن » الذى تعرض له هو أن يتفضل بتوصيله للمستشفى فقام الآخر بذلك وتركه هناك وانصرف خوفًا من أن يبلغ المستشفى الشرطة ضده . . وجاء دورى أنا لاخراجه منها واصطحابه إلى البيت فعدت إليه معه وأنا فى قمة الألم والانزعاج . بعد أن كنت منذ فترة قصيرة فى قمة الحرج والكسوف .

ألم أقل لك إنها كانت ليلة لا تنسى ؟!

والشـــوق مركبـــى !

أحب شهر رمضان وأشقى بلياليه !

أحب الصفاء الذى يتبذى فى الوجوه عند اقتراب المغرب . . وأحب السكون والسلام اللذين يخيمان على الدنيا قبيل الافطار واترقب سعيدًا صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن للمغرب بصوته الخاشع النبيل ، والفانوس الملون الكبير يضىء فى مسكنى مع انطلاق المدفع ويلقى بظلاله الملونة على المكان . إشارة الافطار ترتبط عندى من ذكريات الطفولة بحاسة البصر لا بحاسة السمع كما هو الحال مع أهل القاهرة والمدن الكبرى . ففى مدينتى الصغيرة التى نشأت بها لم يكن لنا مدفع للافطار . . وإنما كنا نتواصى كل يوم بالاحتراس من الافطار عند سماع صوت يدوى فى الراديو . لأن مدينتى تفطر بعد القاهرة بـ ٧ أو ٨ دقائق . وما كان أبطأ هذه الدقائق القليلة علينا ونحن صبية صغار وما أكثر ما تساءلنا بضيق لماذا يستمتع أهل العاصمة بطعامهم وشرابهم قبلنا . مضت سنوات طويلة حتى استوعبت عقولنا الصغيرة حكاية خطوط الطول ومغيب الشمس فى مدينة قبل أن تغيب فى مدينة أخرى واكتفينا باعتبار مدفع القاهرة بشيرا بقرب ترطب الألسنة الجافة بالشراب وعيوننا تتركز على مئذنة مسجد سيدى إبراهيم الدسوقى العالية نرقبها من الشرفة . . وننتظر

«البشارة» ! بشرانا هى إضاءة فروع اللمبات الكهربائية التى تحيط بها فإذا أضاءت هللنا فرحين كما يهلل جمهور الكرة عند اصابة المرمى . . وأسرعنا إلى الماء والشراب وصوت المؤذن يدعو الصائمين للتحلل من صومهم .
كانت ليالى رمضان بالنسبة لى فى سن الشباب سمرا بريئًا وجولات ساهرة فى حى الحسين ، وأصبحت الآن عملاً متصلاً يستغرقنى من بعد الافطار إلى ما قبيل الفجر . «يفاجئنى » الفجر كل يوم ولم أنته بعد مما أريد أن أكتبه أو أؤديه ولابد من محاولة الاستمرار بلا قهوة ولا شاى . يجافينى النوم فلا استطيع الاستعانة عليه بشراب مهدئ للأعصاب كما أفعل فى الأيام العادية . فى فراشى أواصل القراءة حتى يسقط الكتاب من يدى وأغيب فى النوم مؤملا أن أنام ساعات كافية تجدد نشاطى ، فأصحو بعد دقائق وأمد يدى والتقط الكتاب من الأرض وأعاود القراءة إلى أن يسقط مرة أخرى وهكذا عدة مرات حتى الصباح وأحيانًا حتى الظهر . قراءاتى فى شهر رمضان تنحصر فى القراءات الدينية وبعض كتب التاريخ الإسلامى التى سبق لى قراءتها لكى تسترخى أعصابى المشدودة وتقربنى من أمل النوم .
انتهيت قبل رمضان بعشرين يومًا من مشروعى الخاص لقراءة القرآن قراءة متأنية مستعينا على دراسته وفهمه بالتفاسير الكبرى . قبل أن أبدأ هذه المحاولة انتهيت من قراءة التوراة والانجيل واستغرقت قراءتهما عامًا كاملاً من عمرى وحين بدأت قراءتى أو دراستى للقرآن سجلت فى فهرس الكتاب بالقلم الرصاص تاريخ بدء المحاولة وعندما انتهيت من قراءة آخر سورة رجعت للبداية فاكتشفت أنى قد بدأت فى ٢ / ٢/ ١٩٨٨ وانتهيت فى ٤/ ١ / ١٩٩٢ أن أى محاولتى قد استغرقت ثلاث سنوات تقريبًا

تخللتها بعض فترات التوقف القصيرة . ورغم ذلك فلقد كانت النتيجة الأولى التى خرجت بها منها هى أنى فى حاجة لبدء دراسة أوسع للقرآن الكريم .

يا إلهى كيف استطاع الأئمة العظام أن يحفظوا ويستوعبوا القرآن الكريم وأحكامه والحديث النبوى الشريف ودلالاته ثم يجلسوا للناس فى مجالس الافتاء وبعضهم قد أجيز للفتيا من شيوخه بعد امتحان عسير فى القرآن والحديث والفقه وهم فى سن الشباب ؟ هؤلاء وأمثالهم انقطعوا للعلم منذ الصبا وحفظوا القرآن والحديث وارتحلوا من مكان إلى مكان يسمعون من الشيوخ الكبار وبعضهم كان يسافر السفر الطويل بالشهور ليستقصى حديثا شريفا ويسمعه من رواته ويمتحن صحته وأمثالهم هم من عناهم الرسول الكريم بقوله : أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . نعم هم نجوم تهدى الضالين فى صحراء الحيرة فقد نقلوا عن التابعين والتابعون نقلوا عن الصحابة والصحابة أخذوا عن معلم البشرية صلوات الله وسلامه عليه والأمين قد نقل الرسالة عن رب العرش العظيم .
أتأمل كثيرًا قصته مع أصحابه وهم فى أحد أسفارهم خلال شهر رمضان وقد صام من صام وأفطر من أفطر مستخدمًا رخصة الافطار فى السفر فلم ينه صائمًا ولا مفطرًا غير أن بعض الصائمين قد اشتد بهم الجوع والعطش فى قيظ الصحراء فنصحهم برفق بأن يفطروا فاستحيوا أن يفعلوا وواصلوا الصوم حتى أشرف بعضهم على الهلاك فجاءهم الأمين مغضبا يقول : يا معشر «العصاة» انى مفطر فافطروا !

أتأمل كلمة » العصاة » ويزداد عجبى واعجابى بإنسانية المعلم ورحمته

فقد اعتبرهم بتعنتهم مع أنفسهم قد عصوا أمر ربهم بألا يوردوا أنفسهم مورد التهلكة وأراد بذلك أن يحثهم على الرحمة بأنفسهم .

أضيق كثيرا بطائفة من الأطباء يخرجون علينا كل رمضان بحديث مكرر معاد عن أن الصوم يفيد الجسم ولا يضر الصحة ، فأكاد أسألهم فى كل مرة : وماذا لو كان ضارا بالجسم والصحة . . أكنا نمتنع عنه ؟ . إننا نصوم لأن الله قد أمرنا بالصيام ولأن كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو لله كما جاء فى الحديث القدسى وليس يعنينا كثيرًا إن كان ضارًا أو مفيدًا لها ، لأننا نصدع بما نؤمر ونؤمن بما جاء به موسى وعيسى ومحمد ولا يجوز فى رأيى مهما كانت النوايا طيبة أن نخضع ركنا من أركان الإسلام لجدل العلماء واختلاف الآراء بين مؤيد للفوائد الصحية وبين مخالف لها . فالإيمان هو التصديق بالقلب والتفكير فريضة دينية وسيلتها العقل والدليل العقلى وليس العلم التجريبى الذى تتغير حقائقه من جيل إلى جيل وفرائض الإسلام الخمس لا تحتاج إلى وساطة بين الخالق والمخلوق ويستطيع المرء أن يمارسها جميعًا بنفسه بلا وسيط بينه وبين ربه .

ومن كلام الصوفية الجميل الذى أطرب له وأستعيده كثيرًا خلال قراءات رمضان : إن المحبة هى الموافقة أى الطاعة له فيما أمر والانتهاء عما زجر والرضا بما حكم وقدر .

وأحسب أن معانى الإيمان تتمثل بأفضل صورة فى مثل هذا الكلام الجميل الذى يمزج بين المحبة والطاعة والإنتهاء والإيمان بالقضاء والقدر بغير حاجة إلى مزايدة بعض المزايدين . أما قمة طربى فحين اقرأ ما رواه على

ابن أبى طالب رضى الله عنه من أنه قد سأل الرسول الكريم عن سنته فقال:

«المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة »

هذه هـى سنته صلـوات الله وسلامـة عليه ، فهـلاً لاحظت مفـردات المعرفـة والعقل والعلم والـذكر وهل طربـت كما طربت أنـا لمفردات الحب والشوق والصبر والرضا فى حديث من لم يكن ينطق عن الهوى ؟ وهل مست قلبك عبارتا «الحزن رفيقى والشوق مركبى » كما مستا قلبى ؟!

إن الحب بمعناه الكبير يشمل الحب الإلـهى وحب البشر وحب المرء لأخيه والأم لولدها والزوجة لزوجها والرجل لزوجته وولده وحب الخير للجميع ، ومن بين قراءات رمضان التى تستوقفنى كثيرًا ما قاله الامام بن حزم الأندلسى فى باب طى سر المحبين فى كتابة طوق الحمامة من أن بعض صفات المحبين الكتمان باللسان والتصنع باظهار الصبر وحسب المرء أن يعف عن محارم الله عز وجل والتى يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة ، أما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه . . إذ القلوب بيد مقلبها !»

صدقت والله يا شيخنا الامام . . إن القلوب بيد مقلبها . . فما يملك المرء كما قلت أنت إلا «حركات جوارحه المكتسبة » أى حركات جسمة . .

فيستطيع أن يرفع يده أو ساقه أو يخفضها . . لكنه لا يستطيع أن يفتح قلبه لمن انغلق دونـه ولا أن يغلقه دون من انفتح لـه دون إرادته . . وتطول قراءات رمضـان . . وبين سقطه الكتـاب واستعادتـه من الأرض تـوقفت ذات مرة متفكرا أمام مشهد الختام فى حياة الخليفة المعتصم العباسى وهو يحتضر ويقول نادما : ذهبت الحيلة فلا حيلة . . اللهم أنى أخافك من قبلى ولا أخافك من قِبَلك وأرجوك من قِبَلك ولا أرجوك من قِبَلى !

وأجدنى بغير وعى أردد وراءه نفس الدعاء : نعم نعم نخافك من قِبَلنا لأننا بشر خطاءون ولانخافك من قِبَلك لأن رحمتك قد وسعت كل شىء فاغفر لنا اللهم ما تقدم وما تأخر من ذنب انك سبحانك من لا ينقطع فيه الرجاء . واكتفى بهذا القدر . . فلقد سقطت الظلال الملونة فجأة على الورق وانطلق مدفع الافطار !

ثم انتصار !

مغرم أنا بقراءة قصص حياة العباقرة والناجحين فى كل مجالات الحياة المختلفة . . واجد دائما متعة ذهنية كبيرة فى تتبع خطوات كفاحهم لاثبات ذاتهم وعثراتهم الأولى إلى أن تحل اللحظة التى يسميها نقاد الدراما بلحظة التنوير حين تبدأ عقدة المسرحية فى الانفراج وتتخذ طريقها للحل . وينتصر الخير والحق .

ولأن النجاح ثمرة عادلة للكفاح والعبقرية والاخلاص فإننى اسمى هذه اللحظات دائمًا بلحظات انتصار الحياة على قوى الاحباط واليأس واضطهاد الموهبة واستمتع باسترجاعها والعودة لقراءتها بين حين وآخر.

ومع أن نجيب محفوظ لم يكتب قصة حياته بقلمه حتى الآن . . فلقد قرأتها فى الكثير مما كتب عنه . . ومع أنه لم يعرف شقاء الحرمان فى طفولته وصباه ، لنشأته فى أسرة متوسطة صغيرة ، فلقد عرف مرارة الاحباط والتجاهل ، وتأخر الاعتراف بعبقريته سنوات طويلة استغرقت شبابه ومعظم كهولته . . فقد ظل ١٠ سنوات يكتب المقالات الفلسفية بغير أن يلتفت إليه أحد ثم بدأ يكتب روائعه القصصية التى اشتهرت فيها بعد

ونشرها جميعا فلم توزع كل منها أكثر من ألف أو ألفى نسخة على الأكثر، ثم خطر له أن يكتب رواية طويلة تصاحب أسرة من بدايتها إلى شيخوختها وتعكس الحياة الاجتماعية والفكرية على مدى ٥٠ سنة، فظل أكثر من عامين يكتب رائعته الثلاثية لمدة ٥ ساعات كل يوم. . وانتهى من كتابتها فى ألف صفحة من حجم الفولسكاب . . ثم قام بتبييضها بخط يده أيضا وحملها فخورا بها إلى ناشره الأستاذ سعيد السحار ووضعها أمامه على مكتبه فنظر إليها الناشر منزعجا من ضخامتها وقال له : ما هذه الداهية التى جئتنى بها !

ورفض نشرها فعاد بها نجيب محفوظ كسير الخاطر حزينا على جهده الضائع واودعها أحد أدراج مكتبه وانصرف عنها إلى شئون حياته . . وانقطع عن الكتابة الروائية ٥ سنوات كاملة ثم دار حوار ذات ليلة بينة وبين المرحوم يوسف السباعى فى نادى القصة عن هذه الرواية فقرر السباعى نشرها مسلسلة فى مجلة الرسالة الجديدة. . ونشرت حلقاتها الأولى فاجتذبت القراء إلى متابعتها . . وقرأها عميد الأدب العربى طه حسين فكتب عنها صفحة كاملة فى جريدة الجمهورية بعنوان : بين القصرين قصة رائعة للأستاذ نجيب محفوظ . . بل وقرأها الناشر الذى استهول حجمها فشغف بها اعجابا وحبا . . ودعا صديقة نجيب محفوظ وقال له ان القصة ناجحة ولكن هناك استحالة فى نشرها فى كتاب واحد لهذا فلابد من تقسيمها إلى ٣ أجزاء . . وهكذا صدرت ثلاثية بين القصرين وقصر الشوق والسكرية التى أعيد طبعها بعد ذلك ١٤ أو ١٥ طبعة عدا الطبعات المزورة فى الخارج . . والطبعات المترجمة عنها !

وجاء التقدير الأدبى إلى نجيب محفوظ بعد طول انتظار . . وواصل الأديب العبقرى نسج رواياته وقصصه وحياته البسيطة . . إلى أن استسلم لنوم الظهيرة ذات يوم فايقظوه منه ليبلغوه بفوزه بجائزة نوبل . . ولم يصدق الخبر ولم يتوقعه حتى فوجئ بالسفير السويدى يدخل عليه مسكنه الصغير.

وعلى عكس نجيب محفوظ فلقد عرف الفنان العالمى شارلى شابلن البؤس والحرمان والتشرد فى طفولته حتى أودع ملجأ المتشردين لعجز أمه عن إعالته . . وحتى جُنَّت والدته من أثر سوء التغذية وغادر الملجأ ليلتقط طعامه من صناديق القمامة ويعمل بائعًا للصحف وعامل مطبعة ونافخ زجاج وصبى قاطع أخشاب ويطوف بمكاتب وكلاء الفنانين باحثاً عن دور صبى فى أية مسرحية ليس حبًا فى الفن ولكن طلبا للقمة العيش حتى يحصل بالصدفة على دور فى مسرحية مقابل ٥ , ٢ جنية فى الأسبوع فيعتبرها ثروة عظيمة . . وتفشل المسرحية لكنه يلفت انظار النقاد بموهبته الفطرية فى الاضحاك والتمثيل ثم يؤدى بعد سنوات دوراً أكبر وهو فى السادسة عشرة من عمره أمام ممثل كبير. وكانت المسرحية لا تستثير ضحكة واحدة قبل دخول نجمها الأوحد . . فدخل الفتى إلى المسرح وبدأ يتحرك على سجيته ويهز اكتافه ويطرقع أصابعه ويتعثر فى قطع الأثاث فاذا بالضحكات تتعالى . . ويسمع النجم الكبير لأول مرَّة ضحكة تنبعث من الصالة قبل دخوله فيرقب الممثل الجديد من وراء الكواليس ويهنئه .

ويرحل شابلن مع فرقة مسرحية إلى أمريكا ويؤدى دور شاب مخمور فى إحدى المسرحيات . . فيعجب به شاب من بين المتفرجين ويقول لفتاته

بجانبه : لـو أصبحت ذات يوم منتجًا سينمائيـًا فسوف أسند دورا كبيرا لهذا الفتى !

وبعد ثلاثة أعوام من هذه الليلة أصبح الشاب شريكا فى شركة للإنتاج السينمائى فأرسل إلى الفرقة المسرحية يسأل هل عندكم ممثل أسمه شافن أو شابلن أو شىء كهذا !

وتكـون هذه هـى بدايـة شابلـن مع فـن السينما . . ويبتكر شخصيـة الصعلوك التى اشتهر بها . . وتحقـق افلامه ارقاما قياسيـة من الأرباح . . وتهطل أمطار الشهرة والنجاح غزيرة ويـدخل عليه اخوه بعد سنوات قليلة وشابلن يعـزف على الكمان وهو يضع فوطـة حول جسمه بعد خـروجه من الحمام ويقول لـه : مبروك لقد أصبحـت من أصحـاب الملايين فقد وقعنـا عقدا بمليون و ٢٠٠ ألف دولار !

ويستمر الشـاب فى العزف وهـو يقول : جميـل . . رائع . . ويتبادلان النظر كـأنهما يتذكران كيف كـادت حياة أمهما تتوقف ذات ليلـة على فنجان من الشاى الساخن يحميها من التجمد من البرد ولم يجداه ! . .

ومثل شابلن فى طفولته وصباه عاش فيلسوف الموسيقى ريتشارد فاجنر سنـوات صباه وشبـابه يعـانى مـن البـؤس والحرمان مضـافا إليهما افتقـاد التقديـر لموهبته الموسيقيـة بالـرغم مـن نبوغـه وجمعه بين عبقـرية التـأليف الموسيقى والنبـوغ فى كتابة القصـة والمقال . . فقد انهى الشـاب فى دراسته الثانوية والتحق بالجامعة ليدرس الفلسفة . . ثم بدأ يؤلف أوبراته الشهيرة ويعرضهـا فيقابلها الألمان بالسخـط والانصراف عنها لمخالفتها لـلأوبرات التقليـديـة التى تعـودوا عليهـا ويضطـر الموسيقار العبقـرى للترحـال بين عواصم أوروبا فلا يلقى فى أى منها التقدير الذى يستحقه ويعود لبلاده

محبطا وينهمك فى تأليف إحدى أوبراته وهو بلا مورد تقريبًا فيكاد ذات مرة أن يهلك جوعا لولا إن انقذته زوجته بشراء وجبة طعام دسمة تعهدت كتابيًا بدفع ثمنها فيما بعد ويستعد لعرض أوبرا «رينزى» التى ألفها وينهمك فى تدريباتها ويبدى ممثل الفرقة الأول اعجابه بألحان الأوبرا ويعبر عن اعجابه مازحا بإخراج قطعة نقود معدنية يقدمها لفاجنر تعبيرًا عن اعجابه ويدعو الممثلين الآخرين لأن يفعلوا مثله فيستجيبون ضاحكين . . ويتقبل الموسيقار النقود ضاحكًا وتتكرر القصة طول أيام التدريبات وتصبح دعابة كل يوم والممثلون لا يعرفون إنه لولا هذه «الدعابة» لما وجد فاجنر ثمن وجبته كل يوم ثم تعرض الأوبرا فتحقق نجاحًا مذهلاً لأول مرة وتبدى اميرتان المانيتان اعجابهما بالموسيقار الموهوب . . وتبلغ أنباء النجاح اسماع ملك مقاطعة ساكس فيأمر بتعيين فاجنر رئيسا للفرقة الموسيقية الملكية ويجد الموسيقار لأول مرة دخلا مضمونا يكفية للتفرغ للموسيقى وتدعوه لندن التى سبق أن انكرته من قبل لعرض أوبراته فيها فيذهب إليها غازيا ويعود لألمانيا فيجد أوبراته تحقق نجاحًا مذهلاً يتعجب له حين يتذكر الاحباط الذى أصيب به منذ سنوات قليلة . .

وبالرغم من أنه لم يتخلص من الديون معظم سنوات حياته فإنه لم يعد أبدا إلى حالة البؤس الذى عاشه فى شبابه . . وعاش حياة عريضة نال فيها معظم ما أراده . . ولم يتخل أبدا عن اقتناعه العجيب بأنه لا يقترض . . لكن «العالم مدين له بما هو فى حاجة إليه» كما كان يردد ساخرًا أو مصدقًا الله أعلم !

ومع أن الفيلسوف الألمانى شوبنهاور لم يواجه مشكلة مادية حقيقية فى

حياته لنشأته فى أسرة ثرية . . فلقد واجه الانكار والتجاهل وانعدام التقدير معظم سنوات حياته . . وعاش مجهولا أو شبه مجهول تساوره الشكوك فى الجميع ومفتقدا الأصدقاء ومتذمرا من كل شىء . . ينام وقد وضع مسدسًا محشوا بالرصاص تحت وسادته ولا يسلم ذقنه لحلاق أبدا خوفا من أن يتعرض لأذى أو للعدوى ويصحب معه كوبًا جلديًا إلى أى مكان يذهب إليه ولا يشرب إلا منه ويكتب حساباته باللغة الاغريقية القديمة حتى لا يفهمها أحد غيره . ونشر الجزء الأول من مؤلفه الضخم «العالم ارادةوفكر » الذى صور فيه فلسفته الخاصة فأبلغه الناشر بعد ١٦ سنة من صدوره أنه اضطر لبيع نصف الكمية كورق دشت للف البضائع !

وتجرع مرارة الاحساس بالهوان وهو يرى كما قال « التافهين يتمتعون بالشهرة والتقدير وهو الذى أعلى لواء الحقيقة إلى أعلى مكان رفعه إليها إنسان يعيش وحيدًا منسيًا ! » وكره كل شىء فاعتزل الحياة الفكرية وهو فى سن الخامسة والأربعين وانتقل إلى مدينة فرانكفورت وعاش هناك وحيدًا وظل ١٧ عامًا لا ينشر كتابا ولا مقالا . . ولا عمل له لأن « العباقرة ليس من الضرورى أن يعملوا إذ يكفى وجودهم فى الحياة لكى يستفيد البشر » كما يقول ! . . ثم نشر مقالا واتبعه باصدار الجزء الثانى من مؤلفه : العالم ارادة وفكر . . فإذا بأوروبا تلتفت بلا سابق انذار إلى شوبنهاور . . ويقرأ المثقفون كتبه . . وإذا به يجد لنفسه فجأة وبلا مقدمات آلاف الأصدقاء من دارسى الفلسفة وأساتذتها يحجون إلى بيته . . ويطلبون لقاءه ويكتبون عنه المقالات والدراسات . . وتفاجئه الشهرة والمجد والتقدير الذى انتظره طويلا وهو يقترب من السبعين فيقول ساخرا : بعد أن عشت حياتى

وحيدًا منسيا جاءوا فجأة يزفونني إلى قبري بالطبول !

ومع ذلك فقد استمتع بمجده الذى جاءه متأخرا وثمل بالتقـدير الـذى هبط عليه من السماء وتمنى لو طال العمر ليرشف أكبـر جـرعة ممكنة منه .

وما أحلى أن ينال كل إنسان مخلص لعمله وقيمه ومبادئه جائزته من النجاح والتقدير . . الآن أو غدا . . أو بعد غد . لا يهم لكن المهم . . هو أن تأتى الجوائز ذات يوم .

مونتـاج يا دنيــا !..

منذ عشرين سنة ذهبت إلى استديو مصر فى الهرم لألتقى بالفنان سعيد الشيخ المونتير المعروف ، وأكتب تحقيقًا صحفيًا عن دنيا المونتاج . . لم يكن لى اهتمام بعالم السينما ولم أكـن محررًا فنيًا فى أى يوم مـن الأيام ، لكـن فكرة خطـرت لى فدفعتنـى لإجراء هـذا التحقيـق . فقد أردت أن أعـرف أسرار المونتـاج وكيف يقـوم المونتير بقص ولصـق مشـاهد الأفـلام لكى يتحقـق تتابعها بالإيقاع المطلوب . . وكيف يختار هذا الايقاع .

وأذكر أنى دخلت عليه فى قسم المونتاج بالاستديو فوجدته يجلس أمام آله عرض الأفلام الصغيرة «المافيولا » . . وبجواره علب الأفلام . . وتحت قدميه عشرات الأمتار من قصاصاتها وتحدثت إليه وناقشته . . وفهمت منه بعض ما خفى عنى ، ونشرت تحقيقى عنه وكتبت فى مقدمته عبارة ما زلت أذكرها حتى الآن هى : إن هذا الرجل هو الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يحقق أمنية كل إنسان فى الأرض ويحذف من حياته مشاهد الألم والفشل والضعف والخذلان والمرارة وكل ما يخجل منه ثم يعيد عرض فيلم حياته على ناظريه خاليا منها فيرضى عن نفسه وعن الدنيا ! ومنذ كتبت هذه السطور وأنا أتذكرها من حين لآخر . . وقد أرددها أحيانًا لبعض من

يشكون لى همومهم فأقول لهم أننا للأسف لا نملك قدرة المونتير ولا وسائله لحذف ما لايعجبنا من مشاهد حياتنا الماضية . . لهذا فلابد لنا من أن نتقبل حياتنا بكل ما فيها من آلام . . ولابد أن نتقبل الماضى بكل ما فيه من أخطاء سواء ما تعلق منها بأخطائنا نحن أو بأخطاء الآخرين فى حقنا .

والغريب أنى لم أدخل أى استديو للسينما سوى هذه المرة رغم كثرة ما دعيت لحضور تصوير بعض مشاهد الأفلام التليفزيونية أو المسلسلات المأخوذة عن بعض قصصى . . وما زلت أذكر حتى الآن منظر سعيد الشيخ وتحت أقدامه مئات الشرائط الملقاة على الأرض فى اهمال وقد سألته عنها وقتها فأجابنى بأنه استغنى عنها وأنها ستلقى بعد قليل فى سلة المهملات فلمعت فى ذهنى فكرة وسألته هل أستطيع الاحتفاظ ببعضها؟ فأجابنى باسماً : خذها كلها إن شئت . . ولم آخذها كلها وإنما أمسكت بالمقص وقصصت من كل شريط بضعة مشاهد ، واحتفظت بها فى ملف خاص بمكتبى بالبيت ، وكانت الفكرة التى خطرت لى وقتها هى أن يساعدنى وجودها أمامى على كتابة قصة قصيرة عن مونتير عجوز مُحبط يعيش وحيدًا ويحلم بأن يكلفه منتج بإخراج أول أفلامه لكى ينتقل إلى دنيا الإخراج كما فعل زملاء له من قبل ، وفى انتظار هذه الفرصة كان يصطحب معه كل فترة بعض هذه المشاهد المحذوفة ليستفيد بحرفيتها حين تجىء فرصته الأولى . . فيمضى العمر بغير أن تجىء فرصته ويعتزل العمل ويروح يسلى وحدته بلصق هذه القصاصات المختلفة فى شريط واحد طويل فيصنع منها فيلماً روائيًا عجيبًا يسميه فيلم الحياة ، ثم يجلس كل ليلة أمامه ويعرضه فتتوالى أمامه مشاهد غريبة لا رابط بينها سوى أنها

تصور حياة الناس ومشاكلهم وأفكارهم ومخاوفهم وأفراحهم وأحزانهم.

وتطول مدة عرض الفيلم لأكثر من ٥ ساعات ويشاهده المونتير كل ليلة.. من البداية إلى النهاية.. أو من أى جزء منه فلا يتغير السياق ولا يختل لأنه فيلم الحياة الذى أخرجه بثلاثين عامًا من عمره.

وكما أمضى هذا المونتير العجوز الوحيد سنوات عمره يحلم بإخراج فيلم لم يمكنه أحد من إخراجه.. ظلت هذه القصاصات فى حوزتى عدة سنوات تذكرنى برغبتى فى كتابة القصة التى أريد كتابتها وتشغلنى مشاغل الحياة عنها إلى إن بحثت عنها منذ فترة قصيرة فلم أجدها.. وأسفت لفقدها كما أسفت لأنى لم أكتب هذه القصة فى حينها. لكنى لم أنس الفكرة أبدا.. ولعلى تذكرتها فى مواقف كثيرة فى حياتى وتمنيت لو كانت لى قدرة المونتير على قصها من شريط العمر وإلقائها فى سلة مهملات الذاكرة. وأظن أيضا أنها أمنية كل إنسان.. فما خلت يومًا حياة إنسان مما يؤلمه أن يستعيده أو يتذكره.. ولربما كان الأنبياء وحدهم هم الذين يحق لهم أن يرضوا عما فعلوا وقدموا للبشر أما من سواهم من البشر.. فما أكثر الآلام.. وما أقل الانجازات! والحق إنه لو اتيح لكل إنسان أن يستعرض شريط حياته ويقص منه ما يؤلمه أو يوقظ فيه الاحساس بالندم أو الأسف.. لما طال عرض فيلم حياته كثيرًا. ولو فعلت بالنسبة لشريطى الخاص لقصصت منه مثلا كل مشاهد رحيل الأعزاء فى حياتى.. وهى كثيرة ومؤلمة، ولفعلت ذلك بإصرار ولخصصت برعاية مقصى مشهدى وأنا فى إحدى رحلات الغربة والحياة مقبلة والمستقبل واعد بالخير ثم دق جرس التليفون وقت الأصيل دقته الطويلة التى تحمل الاشارة

بأنها مكالمة من الأهـل البعيدين فرفعت السماعة فـإذا بشقيقى الأكبر ينعى لى شقيقى الأصغر ابـن الثامنة والعشرين وإذا بسماعة التليفـون تسقط من يدى . بل ولسننت أيضا سلاح المقص لأجزَّ به بلا رحمة الأيام الثلاثة التى أمضيتها منـذ سنوات داخـل غرفة العنـاية المركزة واقفًـا على قدمـى أرقب شقيقى الأكبر هـذا نفسه . . والحياة تنسحب منـه ببطء ساحبـة معها إلى العدم جزءا من نفسى وروحى وطفولتى وصباى وذكرياتى المشتركة معه .

أما مشـاهد الغدر أو الجحود . . فلسـت أحب إذا ما عرضـت فيلمى الخاص على شاشتى الصغيرة أن أراها من جديـد لكيلا تتجدد مرارتى من أبطالها لكنى سوف ابقيها لأنها من دروس الحياة التى لا غنى لإنسان عنها ولأنه بآلامنا قد تعلمنـا الحياة وسأزيد فقط من تسارعها عنـد عرضها لتمرَّ مرور الكرام . . بلا مرارة ولا أحقاد ، إذ لولاها لما عرفت قيمة الوفاء . . ولما كرهت أن أغدر بأحد وإن نالنى منه الكثير . . ولما تذكرت دائمًا لسعة النار التى أحسستها فى كل موقف منها . . فـرجوت ربى ألا يجعلنى ممن يكونون الآخريـن بما سبـق أن اكتـووا هـم به . . وأن يجعلنى ممـن تزيـدهم الآلام فهما للنفـوس البشرية . . والتماسًـا لأعذار الآخـريـن واستعدادًا للصفـح عنهم .

وعلى العكس منها المشاهد التى أسأت فيها فهم الآخرين . . وقسوت فى أحكامـى عليهم . . فهذه لـن أزيد من تسـارعها . . وإنما سأعـرضها عرضًا بطيئًا لاكتشف أخطائى فيهـا . . وأحاول تجنبها فى تعاملى مع البشر وسأتعلـم منها ألا أحكـم على الآخريـن بمنطقى وحـده . . وأن أضع فى الاعتبار منطقهـم وظروفهـم ودوافعهم وألا أقـع فى الخطأ البشرى القـديم

الذى عبر عنه الأديب الفرنسى « اندريه موروا » حين قال إن كل ما يتفق مع ميولنا ورغباتنا يبدو فى نظرنا حكيمًا ومعقولا. . أما ما يناقض رغباتنا وأهواءنا فهو دائمًا عين الحمق والخطأ .

أما مشاهد الاحساس بالعجز أمام مواقف تمنيت لو كنت قادرًا على تغييرها أو اجتيازها وحال عجزى دون ذلك . . فلست أحب أن أستعيدها من جديد لأنى لن أستفيد من استعادتها شيئًا سوى الحسرة على ما ضاع من العمر وما عاد من الممكن استرداده. ومثلها مشاهد نهايات الأشياء . . من البشر . . إلى الشجر . . إلى كل شىء ، لأن البدايات دائمًا متوردة واعدة . . والنهايات دائمًا ممرورة وكئيبة لهذا أحب أن أتذكر أصدقائى وأعزائى فى بدايات القوة والأحلام وأكره أن أتذكرهم فى نهايات الضعف والانهزام . . وأحب بدايات المشاعر القوية المتدفقة . . وأكره فتورها وخمودها وذبولها فى النهايات . وأحب الربيع وأكره الشتاء . . فى كل شىء . . شتاء العلاقات الإنسانية وشتاء الحب وشتاء الوفاء . .

أما مشاهد السعادة والبهجة فلسوف أطيل عرضها بقدر الامكان وأتمنى لو أستطيع طبع آلاف النسخ منها ولصقها ببعضها لتطيل عرض مساحة السعادة إلى أقصى حد ممكن . . ولن أمل استرجاعها ومشاهدتها من جديد . . فهى تعويض السماء العادل لنا عن كل ما لقينا فى حياتنا وهى المعادل الموضوعى للجانب الآخر من كل حياة ، حيث « لم يجتمع شرق وغرب لقاصد » كما قال أبو تمام . لقد قيل أن الفيلسوف الألمانى «كانت» استعرض ذات مرة فى أخريات أيامه شريط حياته فى مخيلته ثم ابتسم قائلا : هذا حسن ! . وفسر الأمر لخادمه العجوز «لامب» الذى

يقدس سيده بأنه قد راجع حياته كلها وانجازاته فأحس بالرضا عن نفسه وبأنه قد أدى واجبه كاملا .

وسواء أكان محقًا فى ذلك . . أو مغاليًا فى تقدير نفسه فليتنا نستطيع أن نقول مثله عن حياتنا جميعًا ذات يوم والمؤكد أننا قد نستطيع ذلك إذا نفذنا هذه الفكرة الحالمة . . وحذفنا من شريطها كل ما يؤلمنا قبل أن نعرضه أمام مخيلتنا . . وليس مهمًا بعد ذلك ألا يطول عرض ما تبقى منه كثيرًا . فلحظة من السعادة الحقيقية قد تعدل العمر كله . والحمد لله من قبل ومن بعد وفى كل حين .

فـات الأوان ..؟ لا لم يَفُتْ !

زارنى صديق ذات يوم فوجدنى مستغرقًا فى قراءة كتاب ضخم باهتمام شديد وقد بدا علىَّ الاجهاد والانشغال فسألنى : ماذا تفعل ؟!

فأجبتـه ورأسى منحن على الكتاب : كما تـرى . . اقرأ . ففوجئـت به يسألنى : لماذا ؟

فرفعت رأسى مندهشًا ومتسائلاً : ماذا تعنى ؟

فقال : أعنى لماذا تقرأ بكل الاهتمام وتحبس نفسك فى شقتك فى هذه الليلة الجميلة من ليالى الصيف . . هل تريد أن تصبح مثقفًا ؟ ان كان هذا ما تريده فلا تتعب نفسك «فالمثقفون » قد قرأوا وتثقفوا من زمان بعيد. . ولا فائدة الآن من هذا العبث . . فات الأوان . . فهيا لنخرج ونستمتع بالجلوس على شاطئ النيل فى الكازينو القريب !

وللحظات سرت عدوى اليأس من تحقيق الهدف من نفس صديقى هذا إلى نفسى . . وفكرت فى كلامه فوجدته لا يخلو من منطق ! فالعمر قد تقدم بنا فعلا . . فلماذا هذا الشقاء وتخيلت جلستنا فى الكازينو القريب على حافة النيل والذى كنا نسميه «بيت العائلة » من ترددنا الدائم عليه حتى كنت اتلقى معظم اتصالاتى التليفونية فيه ويتوافد عليه الأصدقاء بغير ميعاد سابق فإن لم يجدونى فيه ارسلوا إلى الجارسون النوبى الصغير

بقفطانه الموشى بالقصب ليقول لى ضاحكا وكاشفا عن أسنانه شديدة البياض: اتفضل فيه اجتماع ! فهفت نفسى إلى الاستمتاع بنسيم الليل ومرح الأصدقاء فيه ، فطويت الكتاب الذى أرهقنى بصعوبته عدة ساعات وهممت بالنهوض مع صديقى وأنا أتمتم لنفسى : فات الأوان فعلا للأسف وبدأنا كل شىء متأخرين عن موعده الطبيعى . لولا أنى «تذكرت » فجأة أنى فى العشرين من عمرى «حين جرى هذا الحوار » ولم أتخرج سوى من شهرين فقط وما زال العمر أمامى ممتدا لتحقيق الأهداف. . كما أنـى لم ابدأ متأخـراً . . فاستثيرت فى فجأة غـريزة التحدى والرفض فصحت فى صديقى الساخر هذا : لا . . لم يفت أوان شىء . . وحتى لـو كان قـد فات كما تقول . . فلـن اكتفى بـاليأس . . وسـأحاول تعويض ما فات فدعنى أتم قراءة هذا الكتاب من فضلك .

وعبثا حاول صديقى زحزحتى عن رأيى . . فلم ينجح ، واضطر آسفا للخروج واللحاق بالأصدقاء ، وعدت لكتابى وحوارى الداخلى مع نفسى يؤكد لى أنى كنت على استعداد للخروج لو كان الدافع له هو الاستمتاع البرىء بصحبة الأصدقاء ونسيم الليل على شاطئ النيل . . أما الخروج لأنه لا فائدة من أى شىء وكل شىء فلا وألف لا ، وفتحت الكتاب وكلى تصميم على دراسته فظللت أصارعه ويصارعنى طوال الليل حتى طويت آخر صفحة من صفحاته مع ضوء الشمس . . فنهضت مجهدا وفى صدرى إحساس غريب «بالانتصار» . . وبأنى «أفضل» مما كنت عليه كإنسان وكبشر قبل أن أقرأ هذا الكتاب !

وبالرغم من عبثية عبارة «فات الأوان» لصديقى هذا الذى كان يتنفس

السخرية من كل شيء في الحياة ، فلقد حفرها الزمن في ذاكرتي منذ ذلك الحين.. وتنبهت لتأثيرها السوداوي السلبي في مواقف كثيرة خلال رحلة الحياة . . واكتشفت منذ ذلك اليوم أن اليأس هو الحل الأسهل لأية مشكلة لأنه يعفيك من عناء المحاولة ويوفر قطرات العرق ويحمي الجسم والأعصاب من الاجهاد لكنه من الناحية الأخرى يهديك «هدية» أخرى جليلة الشأن هي الفشل .. والنظرة السوداوية للحياة وشيخوخة النفس ولو كنت في عنفوان الشباب كما يكسبك أيضا سمات نفسية وشخصية لا تقل شأنا هي الحقد على الناجحين . . والشماتة في المتعثرين بدلا من مساعدتهم .

وعرفت أيضا أنه مرض شديد العدوى يمكن أن تنتقل عدواه إليك بسهولة من حامل الفيروس إذا لم تتنبه لذلك وتتحصن ضده بالإيمان بالله والأمل الدائم فيه . . والثقة في النفس . . ثم الارادة والكفاح لتحقيق ما تسعى إليه من أهداف .

أما أنه الحل السهل . . فهو كذلك كما شرحت لك وأما أنه الحل «القاتل» فلأنه يؤخر الحياة من حولك ويوقف عجلاتها ويزيد عدد العجزة ومشلولي الارادة ومشوهي النفس وفاشلي الروح فيها . . إذ لماذا يعملون ويكافحون وقد عمل «العاملون » من قبلهم بوقت طويل وحققوا أهدافهم وسدوا عليهم منافذ العمل والنجاح؟!

ولماذا يبدعون ويبتكرون ويتفوقون وقد استولى «السابقون » على المقاعد وليس هناك في لعبة الكراسي الموسيقية مقعد خال لم يسبق إليه سابق . . والشاعر العربي نفسه يقول «فاز الأوائل بكل فضل»؟!

لكنه لا شيء يثيرني مثل هذا المنطق العاجز الذى ينفث فحيح اليأس والاحباط فى سماء الآخرين .

فالحياة فى تغير مستمر . ولاشيء يثبت فى موقعه إلى مالا نهاية والأبواب الموصدة تنفتح ولابد أن تنفتح بعد حين لأن هذا هو قانون الحياة،وقدرة العقل البشرى على الاضافة والابتكار لا حدود لها ولا نهاية .

وكل إنسان يأتى إلى الحياة يستطيع أن يكون اضافة إليها . . ويستطيع إذا أراد أن يكون عبئا ثقيلاً عليها . . والإنسان الشريف المكافح الساعى وراء أهدافه المشروعة بالوسائل المشروعة لا يمكن أن يكون تافة الشأن أبدا مهما كان حجمه أو موقفه لأنه هو نفسه قيمة كبرى فى حد ذاته بغض النظر عن عمله وشأنه ومكانته فهو بسلوكه الأمين مع نفسه ومع الآخرين يعلى من قيمة المثل العليا والقيم الدينية والأخلاقية حتى وإن لم يع ذلك أحيانًا ويسهم فى ترقية الحياة ويحجب على الأقل عن موقعه شخصًا آخر فاسدًا يزيد من عناء الحياة بغير أن يدرك ذلك .

وهذا صحيح . . فما فى وسع الإنسان لنفسه وللآخرين وللحياة كثير . . وكثير بشرط أن يطرد خفافيش اليأس والاحباط والمنطق العبثى الذى يرى أن كل شيء باطل الأباطيل ولا قيمة له وفات أوان السعى إليه . . فما فات أوان السعى لأى هدف مشروع من أهداف الحياة ولو كان معلومة جديدة نضيفها إلى معارفنا .

ورسولنا الكريم يقول ما معناه إنه إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة أى «شتلة نبات» فإن استطاع أن يزرعها فليزرعها ! نعم فليزرعها

مع أن الساعة على وشك أن تعصف بكـل شيء . . ولن يستفيد أحد من ثمـرها لكـن من يـدرى بما يحمله الغيـب بعـد لحظة ؟ والعـالم الإسلامـى العظيم البيرونى زاره قاضى القضاه وهو يحتضر ففوجئ به يسأله عن مسألة فقهية . . فإذا مـا أشفق عليه من أن يشغـل نفسه بذلك وهـو فى لحـظاته الأخيرة يجيبه :

لأن أموت وأنا عـالم بهذه المسألة أفضل من أن أموت وأنـا جاهل بها ، فيجيبه عنها ويناقشه البيرونى فيها ، ثم يموت وهو عالم بها بعد دقائق من انصراف زائره .

والأديب الايرلندى العظيم برناردشو كان يقول إنه يفضل أن يحيا وأمامه دائما هدف يسعى إليه من أن يعيش وقد حقق كل أهدافه وأصبحت وراءه لأن النجـاح التام لا يعنـى سوى انتهـاء مهمـة الإنسان فى الحيـاة . . ولا يصبح صـالحا بعده إلا للموت تماما كـذكر العنكبوت الذى تقتلـه الأنثى بعد نجاحه فى مهمة اخصابها !

والفقيه الامـام ابن حزم الأنـدلسى كتـب ٤٠٠ مؤلف وكـان كما يقول المؤرخون يجدُّ ويستروح ـ ويشهد مجالـس الأصدقاء ويسمـر مع الظـرفاء ويسمـع أحيانـاً الغنـاء حتى الفجـر ثم يقـوم للصـلاة ويعتكف ليكتـب ويؤلـف ويعتذر لزائريه عـن عدم استقبالهم ثـم يخرج من عزلته بعـد أيام فيسترضى أصحابه ويعيد سيرته من جديد وهكذا إلى آخر يوم فى حياته بلا سأم ولا ملل ولا يأس من «أن الأوائل قد فـازوا بكل فضل » ولم يعد هناك مجال للاضافة . . فأصبح هو نفسه من «الأوائل » المجتهدين !

أما الحواجز والعقبات فبقدر العناء تكـون جوائزالحياة ويكون استمتاع

أصحابها بها وحتى وإن أدركتهم بعد المشيب . . فلحظـة من الرضاء عن النفس قد تمحو كل ذكريات العناء وقد يكون فيها بعض العزاء .

ونحن جميعًا كما «نفكر» فى أنفسنـا . . وكما نراهـا جديـرة به ففكـر فى النجـاح يقـودك تفكيرك إليـه . . وفكـر دائمًا فى الفشـل يسرع بـه تفكيرك إليه . . وفكـر فى الخير ترغـب نفسك أن تكـون نفسا خيرة وفكـر فى الشر تزين لك نفسك طريقه . . فإن لم تملك أدواته اكتفيت بالشر السلبى وهو الحقد على الآخرين وكراهيتهم والشماتـة فيما ينالهم من أذى . فضع نفسك حيث تراها جديرة به ، ولو أنصفت لما رضيت لها إلا بأن تكون نفسا خيرة محبة للآخـرين كارهة لـلأذى مكافحة بشرف فى سباق الحيـاة ولو انصفت لـدفعت عنـك فشل الـروح الذى يصيبهـا بالشلـل وتمسكت بـأهدافـك المشروعة إلى النهاية . . ولتنبهت إلى «قتلة الأرواح» باليأس والاحباط الذين لا يعاقبهـم القانون للأسـف كما يعاقب قتلـة الأجسام وما كان أبعـد نظر جبران خليل جبران حين قال :

وقاتل الجسم مقتول بفعلته

وقاتل الروح لا تدرى به البشر !

فاحترس يا صـديقى من «قاتـل الروح » هذا الذى يـريد أن يجرفك إلى زورقه الغـارق لتغرق معـه فى بحر الظلمات وأرفـض الانضمام لحزب «فات الأوان» الذى يغـريك بالانضمام إليه . لأنـه صدقنى لم يفـت بعد أوان أى شىء . . وشكرا !

دعوني وحدي !

دعاني الفنان كرم مطاوع لمشاهدة مسرحيته الجديدة «جاسوس فى قصر السلطان » فلبيت الدعوة سعيدًا . ذهبت مع أسرتى الصغيرة إلى المسرح القومى بالقاهرة قبل رفع الستار بنصف ساعة لأستمتع بجو المسرح الذى أعشقه والذى شغلتنى عنه ظروف الحياة فلم اعد ادخله إلا ثلاث أو أربع مرات فى السنة وغالبًا فى لندن خلال اجازتى الصيفيه !

أسعد أوقاتى فى المسرح هى لحظات الوقوف لدقائق فى مقصف المسرح قبل دخول القاعة وشرب فنجان القهوة استعدادًا لسهرة تثرى الروح والوجدان، ثم الجلوس فى مقاعد المسرح الأمامية والتطلع للستار الأرجوانى . . وترقب الدَّقات التقليدية ايذانا ببدء العرض . إما حين تظلم الصالة وتنطلق الموسيقى التصويرية فإنى اتبتل خاشعًا استعدادًا للإستغراق فى العالم السحرى الذى سأدخله . فإذا بدأ العرض نسيت ما حولى ومن حولى ولم أتنبه إلا على اسدال الستار على الجزء الأول من المسرحية ، فأعود للمقصف للتدخين وشرب القهوة وأنا هائم فى عالم غريب .

وحين تنتهى المسرحية أفرغ كل انفعالاتى المكبوته فى تحية فنانيها وتدمى يداى من التصفيق للجميع بلا استثناء حتى وإن لم يعجبنى العرض أو لم

أقتنع به لأنى اشفق من ان يتطلع إنسان أدى دوره لعدة ساعات إلى تقدير المشاهدين لجهده البشرى ثم يخذله من يتوقع منهم التقدير وهكذا أحييهم بلا استثناء ولا أبخل على أحد بتحية لمجرد أنى اختلف مع رؤية كاتب المسرحية أو مخرج العرض ثم اغادر المسرح سعيدًا ومشحونًا بانفعالات شتى وذكريات عـزيزة . نعم ذكريات عزيزة وأن بدا هـذا غريبا على من لا صلة له بعـالم المسرح إلا صلة المشاهد . فقـد بدأت حياتى الأدبيـة «مؤلفًا مسرحيًا » وأنا فى سـن الخامسة عشرة ، فكتبت مسرحية فكاهيـة من فصل واحد ليقـدمها فريق التمثيـل بمدرستى الثـانوية فى حفل آخـر السنة . . وبدأت بـروفاتها بـالفعل واصطدمـت فى سن مبكـرة بمشكلة الخروج على النص حين لاحظت أن ممثل الفرقـة الأولى وكان صديقًا لى يضيف إلى دوره عبارات مـن إنشائه فاستشطـت غضبًا وعاتبته فى ذلـك . . وانذرته بـأنى سأقاطعه كصديق إذا استمر فى عدم احترام التقاليد المسرحية العريقة ! . . ووعدنى بـالإلتزام ثم مرضت للأسـف بحمى روماتيزمية ألـزمتنى الفراش لمدة شهر وأضاعت علىّ فـرصة متابعة المسرحية بل ودخـول امتحان الدور الأول فى تلـك السنة ، واكتفيـت بتسقط أخبـار المسرحية مـن أصدقـائى وزملائى بالمدرسة الذين يعودوننى فى مرضى، وترقبت بإشفاق بعد عرضها ان اسمع منهـم كلمه اعجـاب أو تشجيـع عنها . . ففـوجئت بصمتهم التام وتجاهلهـم لها . . وحرصـت على أن أستدرجهـم بالسؤال عـن حفل آخر السنة والمسرحية التى تضمنها فأجابوا بكلمات مقتضبه بانها كانت لا بأس بها ، ثم عرفت سر صمتهم من زميل آخر حين صارحنى بان صديقى الممثل الأول قد «خاننى » وقدم المسرحية «للجمهور » باسمه هو

وكتب اسمه فى اعـلانات الحفل كمؤلف للمسرحيـة ! فكانت أول «خيانه ثقافية » فى حياتى ! ولعلها كـانت خيرًا أراده الله لى . . إذ لربما لو كنت قد جـربت نشـوة الإعجاب بما كتبـت وصدَّقـت إنـى مؤلـف مسرحى فعـلا فواصلت طريق الكتابة المسرحيـة فلقيت مصير صديقى الكاتب المسرحى الموهوب المرحـوم محمود ديـاب الذى أثرى المسرح العـربى بعـدد من أجمل المسرحيات وأخلدهـا ثم مات حسيرًا مريضًـا مهمومًا بهموم الـوطن الكبير والإحساس بالتجـاهل وعدم الاعتبار قبل أن يبلـغ الخمسين من عمره . . وما أن مات حتى عرف المثقفون له قدره وأدركوا أى فتى أضاعوا بالتجاهل والإنكار والخلاف العقائدى السخيف !

لكنى على أية حال قد عوضت هذا الحرمان المسرحى المبكر بمتابعة الحركة المسرحية باهتمام منذ شبابى الباكر وبقراءة عدد كبير من المسرحيات وبدراسة الدراما الشكسبيرية دراسة لا بأس بها استعدادًا ليوم لا يجىء اكتب فيه مسرحية طويلة لا يغتصب فيها أحد حقى كمؤلف بل وكتبت الفصل الأول منها فعلا منذ ١٨ عامًا وما زلت «أفكر » فى كتابة فصلها الثانى الآن ولربما تمكنت من كتابة فصلها الثالث إذا وهبنى الله عمر سيدنا نوح الذى عاش ٩٥٠ عامًا !

كما عوضته أيضًا فى شبابى المبكر بمساعدة صديق لى كان يهوى تمثيل وتقدم للالتحاق بفرق التليفزيون المسرحية التى أنشئت فى أوائل ستينيات ، وكان نظام الالتحاق بها يقتضى أن يؤدى امتحانا فى القدرات التمثيلية أمام لجنة ثلاثية من الفنانين حمدى غيث وعبد الرحيم الزرقانى والسيد بدير ، وكان المتعارف عليه هو أن يختار المتقدم ٣ مشاهد

من ٣ مسرحيات إحداها باللغة العربية الفصحى ويؤديها أمام اللجنة ، فاخترت له من قراءاتى المسرحية ، مشهد حفَّار القبور من مسرحية «هاملت » لشكسبير الذى يمسك فيه هاملت بجمجمه مضحك الملك ويتأملها متفكرا وهو يسأله : اين الآن لهوك وضحكاتك ! واخترت له من مسرحية شوقى مجنون ليلى مشهدها الختامى المؤثر وقيس يبكى على قبر ليلى ويقول :

ولقد أقول لمن يبشرنى
بالخلد ما أنا داخل وحدى !
لو أن ليلى فى النعيم معى
أو فى الجحيم تساويا عندى !

إلى أن يدخل فى دور الاحتضار وتختلط عليه الأصوات ويسمع صوت ليلى يناديه من القبر فيقول :

قيس ، ليلى رنـةٌ فى أذنى
رددت قيسَ وليلىَ الفلوات
نحن فى الدنيا وإن لم ترنا
لم تمت ليلى ولا المجنون مات !
ثم يسلم الروح وتسدل الستار .

وكان هذا المشهد بالذات يسفح الدمع من عينى كلما شاهدته على خشبه المسرح ، وقد شاهدت المرحوم فاخر محمد فاخر يؤديه على خشبه المسرح القومى فى الستينيات فانهمرت الدموع من عينى وأحسست بالخجل من نفسى وحاولت تجفيفها خفيه بغير أن ألفت نظر جيرانى ،

وتلفت حولى بحذر ففوجئت بمن يجلس بجانبى وكان رجلاً أشيب الشعر فى الستين من عمره ، يبكى فى صمت فتجرأت وتلفت أكثر فوجدت الدموع فى عيون معظم المتفرجين وخاصة السيدات وحين انفتح الستار على فاخر وهو يحيى الجمهور كانت تحية الجمهور له صراخًا أكثر منه تصفيقًا !

وكان صديقى هذا يجيد تمثيل هذا المشهد بالذات ويبكى فيه بدموع حقيقية يختلط فيها الواقع بالخيال ، فلقد كانت حياته مأساوية وحرم هو أيضًا ممن يحب وهو فى سن الشباب ، وحرم قبلها من حنان الأب منذ طفولته وانتهت أيضا حياته بطريقة مأساوية فقد كان وحيد أمه فعاد بيته ذات يوم فى الظهر وأعدت له طعام الغداء فتناوله بشهية ثم دخل فراشه ليستريح قليلاً فمات بعد قليل فى سن الثامنه والعشرين وتولت أمه أعانها الله على أقدارها حالةهسترية لم تكن تردد فيها سوى عبارة واحدة هى : أنا التى طهوت له طعامه ووضعته بيدى على المائدة فكيف مات ؟

وكانت مأساة أخرى من مآسى الحياة التى لا تنتهى . . آسف لاثارة أشجانك بها وادعها الآن جانبًا وأعود إلى قصته مع المسرح فأقول أننى اخترت هذين المشهدين وكان لابد من اختيار مشهد فكاهى باللغة العامية فاخترت له ولا فخر مشهدًا من روايتى اليتيمه التى اغتصبها صديقى الغادر ونسبها لنفسه ولم اكتف بذلك وإنما توليت تحفيظه المشاهد الثلاثة بل «وإخراجها » ايضا له وكانت مشكلتنا هى «البروفات » فقد كان صوته جهوريا وكلما إنهمك فى البروفات الليلية توالت الطرقات على باب شقتى من الجيران وتعالت صيحات الاستنكار والاسترحام : يا ناس حرام عليكم نريد أن ننام ونصحو لأعمالنا ! فلم أجد حلاً للمشكلة سوى

أصطحابه بعد منتصف الليل إلى كوبرى الجامعة القريب من سكنى وقتها لنجرى البروفات هناك ، وتمت التجربه بنجاح لمدة ساعتين أو ثلاث ثم فوجئنا بشرطى شاب يسألنا فى انزعاج عن سبب وقوفنا فى الثالثة صباحًا على الكوبرى ، وعبثا حاولنا أن نقنعه بالسبب الحقيقى ، أو بأن يتنازل عن رأيه الصارم فى أنه «ممنوع الزعيق » بعد منتصف الليل ! فلم يقتنع أبدًا أو يتنازل فالبرغم من أننا نقف فوق جسر لا يحيط به سكان من كل الجهات ولا نزعج فيه أحدًا بالصوت العالى اللهم إلا أسماك نهر النيل ، وكانت ليلة ليلاء انتهت فى قسم الشرطة ولم ينقذنا منها سوى مساعد الشرطة العجوز الذى كان أكثر تحضرًا من العسكرى واطلع فى القسم على هويتنا وقال لنـا بفهم : اعذراه فهو لا يعرف شيئا عـن فن التمثيل . . اما «نحن » فما أكثـر ما شـاهدنا يـوسف بك وهبـى وعلى الكسار والـريحانى ومسارح روض الفرج زمان آه . . كانت أيام . . تفضلا مع السلامه ! وأذن لنا بالإنصراف!

ومن عجـب أن صديقى خـرج من قسم الشرطة يـومها فلم ينـم لحظة واحدة وتوجه بعد ساعتين إلى امتحان التمثيل وأدى مشاهده الثلاثة بإبداع ونجح فى الامتحان وعين فى إحدى فرق مسارح التليفزيون على درجة ممثل حرف ب!

وتقاضى مرتبه عن وظيفته الجديدة لمدة سنة كامله بدون أن يشترك فى أى مسرحية من مسرحياتها العديدة فى ذلك الوقت .

فلقد كان لا يعرف احدًا من مسئولى المسرح وليست له صلات تيسر له طريقه ولا يجيد التقرب من المخرجين . . فيئس من تحقيق أحلامه المسرحية

واستقال وعاد لوظيفته الأصلية كمهندس زراعى فى بلدته وانتهت صلته بالمسرح نهائيًا . . ولم يبق له من آثارها سوى الاسم المسرحى الاغريقى الذى اطلقته عليه تيمناً بما سوف يكون عليه شأنه فى عالم المسرحيات الكلاسيكية وهو «ترزياس» ! رحمه الله وعوضه عن كل ما حرم منه فى الدنيا فى عالم الخلود .

وبعودة صديقى لبلدته انقطعت صلتى «بالحرفيه المسرحية » أو بكواليس المسرح واستمرت به كمشاهد وإن لم يفارقنى أبدًا الحلم المستحيل بأن أكتب ذات يوم مسرحية لا يدعيها أحد لنفسه وتعيدنى لعالم المسرح . وظللت اتسقط أخبار عالم المسرح الخلفى من بعض أصدقائى الذين واصلوا طريقه وأصبحوا من نجومه فيما بعد ، ومن بين كل هؤلاء اتذكر دائمًا صديقًا لا أدرى ماذا فعلت به الدنيا الآن فقد غاب عنى منذ سنوات لكنى أعرف على الأقل أن رقة مشاعره كانت السبب فى تأخير تحقق أحلامه الذهبية فى المسرح ، فلقد كان عضوا فى فريق التمثيل بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكان مخرج الفرقة طالبًا «مزمنًا » بالكلية وممثلاً معروفًا فى مسارح الدولة ، وكان يتقدم كل سنة لمسابقة التمثيل المسرحى للجامعات بمسرحية كلاسيكية هى على ما أذكر «لويس الحادى عشر » ويؤدى فيها دور الملك ، ويعد صديقى كل سنة بأنه سيمنحه دورًا رئيسيًا فيها ويظل يرهقه بالبروفات على هذا الدور طول السنة حتى إذا اقترب موعد العرض أمام لجنة التحكيم التى تمنح الفرق المشاركة بعد المشاهدة درجة من ١٠٠ فوجئ صديقى بتنزيله إلى دور حارس يحمل حربة طويلة ويرافق الملك فى لحظاته الأخيرةمع ٣ من الحراس الآخرين وباستدعاء

المخرج لممثـل آخر تخرج فى الكليـة منذ سنوات وقيـده المخـرج صـوريًا فى قسم الـدراسات العليا بـالكلية لكى يحق لـه الإشتراك مع فرقـة الكلية فى المسابقة ثم يمنحه الدور الذى تدرب عليـه صديقى طوال السنة لأنه أقدر عليه !

ويظل هذا يتكرر كل سنة بلا تغير . . ولا المخرج ينهى دراسته ويتخرج فى الكلية ولا صديقى يترقى من دور الجندى شبه الصامت ، إلى أن وقعت الواقعه التى هددت آماله المسرحية فقد عرضت المسرحية فى تلك الليلة أمام لجنة التحكيم وكان «ميزانسين المسرحية » أى خطة الحركة على المسرح كما وضعها المخرج تقتضى فى مشهد الختام المؤثر أن يموت الملك الذى يؤدى دوره المخرج المخضرم نفسه بعد أن يلقى مونولوجا مؤثرًا ، فيجثو الأمير على ركبتيه أمام فراش الملك باكيًا ثم يقول « دعونى وحدى» فينسحب الحراس الأربعة بالتدريج وبنظام معين ويخلو المسرح على الأمير الجاثى أمام جثمان الملك ويتركز الضوء عليهما فيلقى مونولوجا حزينا يستغرق ٤ دقائق وينهض مودعًا الملك خارجًا ببطء ووجهه للجثمان إلى إن يختفى من المسرح ويسدل الستار .

وفى تلك الليلة المشحونة أدى المخرج دوره باتقان مؤثر فعلا وبكى الأمير بدموع حقيقية ثم صاح فى ألم «دعونى وحدى » . . فانسحب الحراس واحدًا وراء الآخر وبنفس النظام . . ما عدا صديقى فقد تسمر فى موضعـه بالقرب مـن فراش الملك وقد سـالت دموعـه وغاب عن الـوجود ونسى الحركة المسرحية تمامًا . . وأصبح كـل همه هو أن يسمع ماذا سيقول الأمير فى رثـاء الملك . . وبين لحظـة وأخرى يمسـح دموعـه بظهر يـده فى

بـلاهه . . وظـل هكـذا لحظـات والأمير صامـت ينتظـر خـروجه والملـك «الراحل » يتميز غيظًا فى فراشه ويسبُّه همسا بأبشع الألفاظ . . ويقول له : امش يا بن . . . . . ، حتضيعنا يـا بن . . . . . . ، ضيعت علينا ٢٠ درجة حتى الآن يا بـن . . . ! إلى أن تنبه صديقى للمـوقف فجأة فهرول خـارجًا وتأثر جـلال المشهد بهرولته المضطربه وضحك أعضـاء لجنة التحكيم ! ، اما ما حـدث بعد ذلك فى الكواليس فـلا داعى للإشارة إليـه لأنه على أية حال كان نهاية طبيعية لأحلام صديقى الفنية .

وغير ذلـك كثير . . وكثير . ومـا مـن مره زرت فيهـا المسرح القـومـى العريق إلا وتذكرت الأمجاد المسرحية التى شاهدتها على خشبته . . وتذكرت أيـام العز حين كـان يعـرض علينـا فى عرض واحـد مسرحيتين لاثنين مـن عمالقـة الأدب العـالمى . . «رجـل الأقـدار » لبرنارد شـو عـن نـابليـون ، و«البغـى الفاضلـة » لجان بول سـارتر عـن التفرقـة العنصرية بين البيـض والسود فى أمريكا ، أو حين كان يقدم لنا مسرحية طويله فى ٥ فصول باسم سلطان الظلام للأديـب العظيم ليوتولستوى ليقول لنا مـن خلال احداثها العنيفه أن جوهر الأديان كلها هو الدعوة للخير والحق والحب وأن التسامح والرحمه والحب هى الحياة وإن الشر والظلم وإيذاء الغير هو الظلام .

أو حين كان يقدم لنا مسرحيـة الكاتب المسرحى الأمريكى ايـروين شو «ثـورة الموتى » فنـرى فيهـا ست جنـود قتلـوا فى الحرب ورفضوا النـزول إلى قبورهـم رغم محاولات رجـال الديـن والأهل اقنـاعهم بقبـول المصير ورغم أوامر الجيش لهم بالامتثال لحكم الطبيعـة والنزول فى هدوء مما اضطر رجال الجيش فى النهاية إلى «قتلهم» مره أخرى احتراما للأوامر !

كـل ذلك وغيره كثير إلى جـانب المسرحيـات العـربية العظيمـة «كبير الحاكم بأمر الله» لعلى أحمد باكثير و«عودة الشباب» لتوفيق الحكيم و«بداية ونهايـة » و«زقـاق المدق» لنجيـب محفـوظ و«النـاس اللى فـوق » و«عـائلـة الدوغـرى» لنعمان عاشـور و«الدخـان» لميخائيـل رومان وغيرهـا أما قمـة عجبى فكـانت دائماً بذلك الـرجل العظيم طلعـت حرب باشا الـذى كان مهمومًا بتحرير الاقتصاد المصرى مـن سيطرة الأجانب ويسعى لانشاء أول بنـك مصرى وعربـى فى الشرق الأوسـط ، وإقـامه عشرات الصنـاعـات والمصانع المصرية الجديدة ، فلم ينـس فى غمار كل ذلك أن ينشئ فى بداية العشرينيات مـن هذا القـرن دارًا للتمثيل العـربى لترقيـة وجدان الشعـب وتقديم الأعمال المسرحية الراقية فيها ، ثم يقيم لهذه الدار مسرحًا جميلاً على غرار دور الأوبرا العالمية ويحرص على أن تكون عمارته وزخارفه عربية أصيلة ثم يشرف بنفسـه على زخرفتـه . . ويطلب مـن أمير الشعراء أن يكتـب له عبارة يزين بها المزخرفون سقوف المسرح و قاعاته . . فيفكر شوقى قليلاً ثم يكتب على الورق كلمتين اثنتين : التمثيل حياة !

ويطرب طلعت حرب للعبارة ويقف على ايدى الخطاطين وهم يكتبونها على جدران المسرح . . وسقوفه العالية . . وابحث عنها هذه المره فى نفس المسرح الذى بنـاه طلعت حـرب وأناأشـاهد مسرحيـة «جاسـوس فى قصر السلطان » الرائعة التى كتبها د. محمد عنـانى فلا أجدها وأتساءل مشفقًا هل محوا هذه العبارة الموحية التى تختصر معانى كثيرة فى حروف قليلة خلال عملية تجديـد المسرح وترميمه التى جـرت منذ سنوات ، فـلا أصل لجواب محدد واعتزم أن أسـأل عنها الفنان كـرم مطاوع . . وكلّى أمـل فى أن تكون

نظارتى هى التى خانتنى فى البحث عنها وأن تكون العبارة الجميلة ما زالت موجودة فى تلافيف الزخارف المنتشرة فى المسرح الذى أعاد إلى ذاكرتى كل هذه الذكريات .

وصدقت يا مساعد الشرطة المتحضر العجوز . . فعلاً كانت أيام !

« شـمعدان » .. كـل إنســان

هى أرملة بسيطة ، لها ابن وحيد فى سن الصبا ، تعيش من تجارة التحف القديمة المصنوعة من البرونز . . تشترى الشمعدانات القديمة والتماثيل البرونزية من المزادات وبيوت الأثرياء وتعتنى بها وتنظفها وتعرضها للبيع فتكسب دراهم معدودة .

مرض ابنها الوحيد بالتيفود وخيَّم شبح الموت فوق رأسه فهرعت إلى الطبيب الكبير تستنجد به . لم يكن معها ما تقدمه له من أجر كبير لكى ينتقل معها إلى بيتها المتواضع لكن الطبيب أحس بعمق مأساتها فنهض معها على الفور وفحص ابنها وكتب له الدواء وأمضى معه وقتا طويلا على حساب مرضاه الكثيرين . وأصبح يمر كل يوم على الفتى الصغير ويراقب حالته الصحية ويحمل له بعض الدواء . . حتى حدثت المعجزة وتخطى مرحلة الخطر وبدأ يتماثل للشفاء وعاد نبض الحياة للأرملة التعيسة ثم استرد الفتى قواه تدريجيا وانقطع الطبيب الكبير عن زيارته ولم ينس الفتى وأمه له هذا الصنيع وأحسا بأنهما مدينان له بدين كبير ، وأرادت الأم أن تعبر عن امتنانها له ولم تجد بين يديها ما تستطيع أن تقدمه له فاختارت له من مقتنياتها شمعدانًا من البرونز ورثته عن زوجها تاجر التحف وضنَّت به على البيع طوال السنوات الماضية وأرسلته مع ابنها للطبيب الكبير. وحمل

الفتى الشمعدان ملفوفًا فى صحيفة قديمة ودخل على الطبيب مكتبه فى حياء وهو يردد عبارات الشكر والامتنان . . ويبلغه أن أمه لم تجد ما تكافئه به سوى أن تهديه هذه التحفة الفنية النادرة . وأخرجها من لفافتها بعناية ووضعها على مكتبه فإذا بها شمعدان يحمله تمثالان لامرأتين عاريتين تمامًا فى غاية الفتنة والإثارة وتؤديان حركة فاضحة مثيرة !

وتأمل الطبيب التحفة باندهاش ثم هرش جانب رأسه فى حيرة وقال :

ـ إنه تحفة فنية فعلا . . ولكن . . لا أعرف ما أقول إنها مثيرة جدا وعارية تمامًا . . ولو احتفظت بها فسوف تدنس مسكنى كما أن زوجتى وأطفالى يدخلون مكتبى وتزورنا سيدات محترمات . . لهذا لا أستطيع قبولها والاحتفاظ بها .

فأجابه الفتى مندهشًا : أهذه نظرتك للفن يا دكتور ؟ قد يقول هذا بعض العامة لكنك طبيب مثقف وتقدر قيمة الفن الرفيع فكيف تقول هذا ؟

إنك لو رفضتها فسوف تكسر قلب أمى وقلبى معها . . وهى تحفة رائعة ولا يؤسفنا سوى أننا لا نملك شمعدانا آخر مماثلا له لكى يوضع على الطرف الآخر من البوفيه ويكتمل تأثيرهما الساحر . . كما إنك للأسف لا تملك شمعدانا مناسبًا له . . هذا هو ما يحزننا فقط أما تلك الفكرة البالية عن الاثارة فليست مقبولة منك يا دكتور !

وأحس الطبيب بالحرج فتقبل الهدية شاكرًا وانصرف الفتى سعيدًا وراح يفكر . . فقال لنفسه إنه يعز عليه ان يلقى بها فى القمامة لقيمتها الفنية الكبيرة . . ويتعذر عليه أيضا أن يحتفظ بها فماذا يفعل . . وتذكر الطبيب

فجأة صديقه المحامى الكبير الذى ترافع عنه مؤخرا فى قضية ورفض أن يتقاضى أتعابه عنها . . وقال لنفسه : إنه محرج من قبول الأتعاب بسبب الصداقة . . إذن فلتكن هذه التحفه هى هديته بديلا عن النقود !

وحمل الشمعدان ملفوفًا فى لفافة ووضعها أمامه باهتمام شديد فتفحصها المحامى بانبهار وهو يتعجب من قدرة هؤلاء الفنانين «الشياطين» على صنع كل هذه الآثار الحية . ثم استرد نفسه ، وقال لصديقه إنه يعتذر عن عدم قبولها . . لأنها «فضيحة» كاملة ستدنس بيته ولانه محام محترم ومكتبه يرتاده أشخاص محترمون سيظنون بأخلاقياته الظنون إذا شاهدوا هذه الفتنة العارية عنده .

فنظر إليه الطبيب باندهاش مفتعل وهو يقول له :

ـ أهذه فكرتك عن الفن الرفيع أيها المحامى الكبير ؟ قد يقول هذا بعض العامة . . لكنك أنت المحامى المثقف تقول هذا . . لا أصدق !

وانتهى الأمر بقبول المحامى هدية صديقه الطبيب وبعد انصرافه قال لنفسه هو الآخر إنه يعز عليه أن يلقيها فى الشارع ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يحتفظ بها . . وبعد تفكير قصير قرر أن يهديها لصديقه الممثل الكوميدى المعروف وارتاح لهذه الفكرة وهو يقول هذا «الخبيث يحب هذه الأشياء الفاضحة وسوف يسعد بها !» .

وتوجه بها إلى المسرح فى المساء وقدمها لصديقه فى غرفته قبل رفع الستار فارتفع الصخب والضجيج حين فتحها المحامى ورآها الممثل وزملاؤه وجاء أكثر من زميل من الغرف المجاورة لمشاهدتها . . وانطلقت التعليقات الضاحكة والماجنة عليها . وانصرف المحامى سعيدا ، وأدى

الممثل دوره فى المسرحية وأسدل الستار وعاد إلى غرفته وجلس بين يدى الماكيير ليزيل عن وجهه آثار الماكياج وراح يتأمل التحفه العارية ثم قال للماكيير : إنها تحفه رائعة فعلا لا أستطيع أن ألقى بها فى الشارع لقيمتها الفنية لكننى لا أستطيع الاحتفاظ بها فى مسكنى . . فأنا أقيم فى شقة مفروشة وزميلاتى من الممثلات يزرننى فيها . . واستقبل فيها الزملاء والصحفيين . . وسوف يتصور البعض عند رؤيتها إننى إنسان ما جن أو داعر فماذا أفعل بهذه المصيبة ؟

ففكر الماكيير فى الأمر قليلا ثم قال له : عندك حق يا سيدى . . إن البعض يتصورون أن الفنانين لا يحترمون الأخلاق السائدة . . وسوف يسىء إليك هذا التمثال . . لكنه من السفه أيضا أن ترمى به فى الشارع لهذا فإنى أنصحك ببيعه . . ان هناك أرملة فقيرة تسكن قريبًا من هذا المسرح تتاجر فى التحف القديمة المصنوعة من البرونز وسوف تشتريه منك بثمن مناسب . . فبعه لها ! وتهلل الممثل للفكرة وغادر المسرح إلى بيته .

وبعد يومين عاد الفتى الصغير إلى عيادة الطبيب وطلب مقابلته ثم دخل عليه غرفة مكتبه يحمل فى يده لفافة ووجهه ينطق بالبشر والسعادة ففتحها وأخرج ما بداخلها ووضعه على مكتب الطبيب وهو يقول : معجزة يا سيدى لقد حقق الله أمنية أمى لكى تشعر أنها رغم فقرها قد استطاعت أن تعبر لك عن تقديرها لجميلك معنا . . لقد ساقت إليها المصادفة البحتة شمعدانا آخر من نفس النوع ونفس الشكل . . لكى يكتمل الطاقم ويوضع على الطرف الآخر من البوفيه فى مسكنك . . فاشترته بلا تردد وأرسلته معى لأقدمه لك . . إننا لاننسى ما فعلت

معنا . . فلقد انقذت حياتى . . وأنا وحيد أمى ولو كنا نملك المال لقدمنا لك . . . و . . . و . .

واستمع الطبيب إلى كلام الفتى ذاهلا . . وهو ينظر بدهشة وانزعاج إلى الشمعدان الفضيحة الذى تخلص منه منذ يومين فقط !

وانتهت القصة الجميلة المعبرة التى كتبها أمير القصة القصيرة المعذب أنطون تشيكوف الذى عاش بين عامى ١٨٦٠ و ١٩٠٤ ولم يطل عمره أكثر من ٤٤ سنة أثرى خلالها الحياة والأدب بقدر عظيم من الفهم لآلام الإنسان وضعفه وتناقضاته . .

ولقد أحببت هذه القصة عميقة المغزى رغم بساطتها كثيرا منذ قرأتها لأول مرة منذ سنوات طويلة وكثير ما تذكرتها فى مفارقات الحياة المختلفة ، فقد أتذكرها مثلا حين نتعامل مع أشياء أو أشخاص يعز علينا أن نلقى بها أو بهم فى الطريق لكنه يتعذر علينا فى نفس الوقت أن نحتفظ بها أو بهم بالقرب منا . . فنواجه نفس الحيرة والحرج والتردد التى واجهها الطبيب والمحامى والممثل فى قصة تشيكوف الجميلة .

أو حين نرفض شيئا أو عملا لأسباب لها منطقها لدينا ثم يضطرنا الحرج أو الادعاء أو الخوف من اتهام الآخرين لنا بالتخلف والجمود للدفاع عن نفس الشىء بنفس المنطق الذى حاول الآخرون اقناعنا به فلم نقتنع !

أو حين نرغب فى التخلص من بعض الأشياء أو الأشخاص ونحتال على ذلك . . فتضعهم الأقدار فى طريقنا مرة أخرى وتعيدهم إلينا كما أعاد الفتى الصغير الشمعدان المثير إلى الطبيب الكبير !

كما اتذكرها أيضا حين نهرب أحيانا من بعض المشاعر والعواطف لأننا

لا نقدر على تحمل تبعاتها ولا نستطيع التسليم أو الاعتراف بها أمام «الزوار» والأهل والأصدقاء ، فنحاول التخلص منها ونرحل بعيدا عمن ترتبط بهم . . فإذا بهم ينتظروننا على غير توقع حيث رست سفائننا فى المهجر البعيد الذى لجأنا إليه فرارا منهم !

فكأنهم وكـأن كل الأشيـاء الفاتنة الـلاذعة التـى لا نستطيع الاعتراف بجمالها وفتنتها وروعتها احتراماً لاعتبارات كثيرة «شمعدان تشيكوف » .

يعجبنا فى السر لكننا ننكره فى العلن ونهديه لغيرنا فيعود إلينا من طريق آخر !

أما أكثر ما يذكرنى بهذه القصة المعبرة فهو اختبارات الحياة العديدة التى تكشف للبعض عن حقيقة قد لا يتصورونها فى أنفسهم . . وهى أنهم متدينون أو محافظون فى اعماقهم وإن لم يعرفوا ذلك . . أو تظاهروا بعكسه والخلاف الوحيد هو أن درجة التدين والمحافظة قد تختلف من إنسان لإنسان !

وفى حياة كل إنسان مواقف ولحظات تعامل فيها مع هذا «الشمعدان» وفى حياتك أنت أيضا بعض هذه اللحظات والمواقف . . فهل تبوح بها ؟

عفـوا .. لقد نسـيت !

فى فيلم أمريكى قديم كان الممثل المطرب الأمريكى فرانك سيناترا صاحب الأغنية الرومانسية الشهيرة «غريب فى الليل » يؤدى دور شخص مدمن للمراهنة على كل شىء . . من نتائج المباريات الرياضية إلى أى شىء يجد من يراهنه عليه من معارفه وأصدقائه . . كأول رجل يدخل من هذا الباب ، هل سيكون طويلا أم قصيرا أبيض أم أسود الخ ؟ وكان يتفاخر بقدرته على تذكر نتائج مباريات الكرة والبيسبول خلال ١٠ سنوات ماضية، وخلال انهاكه فى الحديث عن قوة ذاكرته هذه فاجأة صديقه الذى كان من أكبر ضحاياه بأن وضع يده تحت ذقنه ورفعه لأعلى ثم قال له: مائة دولار على لون الكرافت التى ترتديها أنت . . ما هو لونها ؟

وخسر سيناترا الرهان لأنه عجز عن تذكر لون الكرافت التى يرتديها فى نفس اللحظة التى كان يسرد فيها بدقة نتائج مباريات جرت منذ سنوات؟

والعالم الألمانى اليهودى البرت أينشتاين الذى تبرع بمخه بعد وفاته لمراكز البحث العلمى لتقوم بتشريحه ومعرفه تكوينه وسر عبقريته توصل إلى نظرية علمية معقدة كان عدد من يستطيعون فهمها فى العالم كله فى بعض الأوقات لا يزيد على عشرات ، وكان يستطيع أن يجرى حسابات رياضية

معقدة اعتمادًا على ذهنه المتوهج وذاكرته العلمية المذهلة ، ومع ذلك فكثيرا ماشكا من ضياع قلم كان بيده منذ لحظات وعجز عن تذكر أين تركه ، وفى بعض الأحيان كان يبحث عنه ويستنجد بزوجته فتمد يدها إلى مكتبه أمامه وتقدمه له !

أما نابليون فقد كان دقيق الملاحظة وحاد الذاكرة يتذكر اسماء قواده وضباطه على كثرتهم ويناديهم جميعا بأسمائهم الأولى ، ويقول إنه ما من قائد منهم إلا ويعتقد فى نفسه إنه أحق بالعرش منى ! وفى منفاه بجزيرة سانت هيلانه أملى على ثلاثة من رفاقه مذكراته فذهلوا للتفاصيل الدقيقة التى يتذكرها عن كل مراحل حياته ومعاركه والمؤامرات السياسية التى واجهها ، ومع ذلك فلقد كان ينسى أقرب تفاصيل حياته اليومية ، وقال أحد مرافقيه مداعبا أنه كان يضع يده فى صديريته لكى «يجدها» حين يريدها خوفا من أن ينسى مكانها !

والعرب - كما تقول كتب التاريخ والأدب - كانت ذاكرتهم هى أقوى شيئ فى روحهم إذ لم يكن لديهم شيئ مدون ومحفوظ قبل الإسلام وكل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى - ما عدا المعلقات السبع - قد وصل إلينا عبر الذاكرة والرواة والحفاظ ، وفى هذا المجال تروى الأمثلة العجيبة على قوة حفظهم ، ومنها ما روته كتب الأدب من أنه كان للوزير الأديب الصاحب ابن عباد مجلس للشعر لا يسمح بالانضمام إليه إلا لمن حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ورغم هذا الشرط القاسى فلقد كان يجلس إلى مائدته فى الأعياد والمناسبات ألف رجل ينطبق عليهم هذا الشرط وأصدق الآن أن كلا منهم كان يحفظ عشرين ألف بيت من الشعر. لكنى أجزم بأن أحدا

منهم لم يكن يتذكر ماذا تناول من طعام فى غدائه قبل ذلك بثلاثة أيام!

إذن فما هى هذه الذاكرة التى تتسع لعمليات رياضية معقدة أو آلاف الأبيات من الشعر . . ثم تضيق فتعجز عن تذكر موعد هام . . أو معلومة قرأناها منذ أيام ! إن ابسط تعريف للذاكرة هو إنها جهاز فى المخ يسجل الصور والأفكار والمعلومات والأشياء المختلفة كالرائحة والأصوات ويخزنها فيه إلى أن يتم استرجاعها منه عند الحاجة . . واحيانا بلا إرادة من الإنسان، وعملية التذكر من اعقد أشكال النشاط العقلى ، وعملية التسجيل أيضا تتم تلقائيا ، فتبدأ الذاكرة عملها الجاد فى حياة الإنسان من سن الثامنة وتستمر تتشكل وتنمو حتى سن البلوغ حين ينتظم عمل المخ . . ثم يظل حماس الذاكرة مطردا ومشتعلا حتى سن الثلاثين وبعدها تبدأ فى الانحلال تدريجيا . . وهو ما نسميه نحن بكثرة النسيان وسرعته لكن يعوض هذا النقص ان الإنسان يكون قد اكتسب فى هذه السن نضجا وخبرات قيمة فى التنظيم ووضوح الفكرة والقدرة على الترتيب مما يخفف عنه أثر تراجع ذاكرته وبداية انحلالها . وبعض المتخصصين فى علم تنمية القدرات «يغيظوننا » بالقول إنه ليست هناك ذاكرة قوية وذاكرة ضعيفة ، وإنما هناك ذاكرة تم تدريبها على التذكر والحفظ والتسجيل ، وذاكرة أهمل صاحبها كسلا أو خمولا تدريبها فاستراح إلى ادمان النسيان ! وفى هذا القول شيئ كثير من الحقيقة لأن الذاكرة كالعضلة من عضلات الإنسان إذا استخدمتها كثيرا نمت وقويت وإذا أهملتها ذوت وضعفت ، وعملية تخزين وتسجيل المعلومات تتم فى المخ وعملية استرجاعها تتم عن طريقه أيضا ، لهذا فلا بد كما يقولون من ممارسة أكبر قدر ممكن من التنظيم

والانضباط على العقل لكيلا يسترخى ويدمن الكسل والاسترخاء ، وأول ما ينصحوننا به لكى تكون لنا ذاكرة قوية هو أن «نقرر » ان نتذكر لأن ارادة التذكر هى أكبر العوامل المساعدة عليه . وأن يكون للمخ هدف لأن العقل الذى لا هدف له لا يمكن أن تكون له ذاكرة قوية ، وبقدر أهمية الهدف وكمية الجهد الذى نبذله للوصول إليه يكون نجاحنا فى التذكر . . فالطالب لا ينسى مثلا موعد الإمتحان لأنه هام وجوهرى فى حياته . . وقد ينسى موعدا مع صديق له لأنه ليس جوهريا ولا يؤثر على مجرى حياته ، وطالب الوظيفة لا ينسى أبدا موعد الاختبار الذى سيتقدم إليه لأنه شديد الاهتمام به . . والمحب لا ينسى موعد خطيبته التى يحبها مهما كان ذهنه مشغولا بالشواغل لأنها شديدة الأهمية فى حياته ، وكل إنسان يستطيع أن يتذكر ما يريد أن يتذكره بقدر الحماس الذى يحمله للموضوع المطلوب عدم نسيانه .

والباب الملكى للذاكرة السليمة بعد أن «تقرر » أن تتذكر هو أن نفهم جيدا الشىء الذى سوف نتذكره ، إذ يندر أن ينسى الإنسان ما فهمه واستوعبه جيدًا فى حين قد ينسى ما حفظه بلا فهم بعد فترة قصيرة من الزمن. ثم ان تستمر فى محاولاتك لانعاش ذاكرتك وعدم تركها لنفسها لتشيخ وتهرم وتستنيم إلى الضعف والوهن ، والطريق لانعاشها يبدأ بشحد «انتباه » الشخص للأمر الذى يعنيه ، وحشد أكبر قدر من التركيز الذهنى عليه ، وهناك تدريبات عديدة يقدمها الخبراء لمن يريد أن يتعلم التركيز ، منها تدريب بسيط هو أن تغمض عينيك وترغم نفسك لمدة ٥ دقائق على التفكير بتركيز شديد فى موضوع معين وتطرد خلالها من ذهنك كل الأفكار

البعيدة عنه ، ثم تكرر هذه العملية مرة كل عدة أيام لمدة ٣ شهور ترتفع بعدها درجة تركيزك كثيرًا . ومنها أيضا تمرين فاترينة المحل التجارى وهو أن تنظر بتركيز إلى فاترينة أى محل لمدة ٥ دقائق وحين تعود للبيت وتدون فى ورقة ما تتذكره من محتوياتها ، ثم تقارن فى اليوم التالى بين ما رأيت وما تذكرت وتكرر هذه العملية عدة مرات لمدة شهور فتكتسب قدرات جديدة على الملاحظة والتركيز ، وهذا التدريب بالذات تأخذ به معظم الأجهزة البوليسية وأجهزة المخابرات فى العالم فى تدريب عناصرها على دقة الملاحظة وحفظ الأشكال والوجوه ، ومنها أيضا تمرين العد التنازلى بالحساب العقلى بأن تبدأ بالعد فى أول يوم تنازليا هكذا : ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، وفى اليوم التالى تقوم بالعد على الرقم الثانى هكذا : ١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٦ وفى اليوم التالى تقوم بالعد على الرقم الثالث : ١٠٠ ، ٩٧ ، ٩٤ ، ثم على الرقم الرابع والخامس والسادس الخ . . فتنعش ذاكرتك وتجدد شبابها وتنشط خلايا التفكير والتذكر فى عقلك .

ولأن الذاكرة تعتمد على المخ فان المخ المجهد لا يكون فى أحسن الحالات المناسبة لا للاستيعاب ولا للتذكر . ومن معوقات التذكر أيضا الانفعال والخوف والقلق والعصبية فالذاكرة نوع من التفكير ومن الأفضل أن نوفر لها الجو المناسب وأن نساعدها بعوامل مساعدة على أداء مهمتها كتكرار الشيء الذى لا نريد نسيانه بصوت مسموع أو صامت . . وبكتابته إلى جانب ترديده وبتنمية الاهتمام لدينا بما نفعل لكيلا ننساه ، وبربط الأشياء التى نريد تذكرها بعضها ببعض مما يسهل علينا استرجاعها حين نريد ذلك عن طريق تداعى المعانى عملا بقاعدة «الشيء بالشيء

يذكـر » ، ولا بأس بعـد ذلك من تغـذية المخ بالأغـذية التـى ينصحنا بها الأطبـاء لتغذيتـه وهى الأطعمـة التى تحتـوى على الكالسيـوم والفوسفـور والمغنسيوم كاللبن والجبن والسمك والبيض خاصة صفاره وخبز الدقيق الأسمر والملح الخام والخضروات والفواكة الطازجة و«جنين القمح » واللوز والجوز والبندق ـ لمن استطاع إليها سبيلاً ! ـ إلى جانب فيتامين «د » الذى يصفه الطبيب لمن يحتاج إليه ومع تجنب الأطعمة التى ترهق المخ كالأفراط فى الدهنيات والأفراط فى تناول السكر ، وتجنب المهدئات . . الخ .

ولأنى أعانـى من ذاكرتى منذ زمـن طويل فلقد تعرفـت على تدريبات الذاكـرة هذه منذ وقت مبكـر ، وكانت بـداية اهتمامى بها أنى قـرأت عن أديبنا الكبير الأستاذ نجيب محفوظ أنه يبدأ يومه بحفظ وترديد بضعة أبيات من الشعر لكى ينشط بها ذاكرته ويدفع عنها «الوخم » ، فأصبحت منذ سنوات أردد واحفظ من حين إلى آخر بضع آيات من الذكر الحكيم وبضعة أبيات من الشعر القديم وبضعة مفردات جديدة من الانجليزية والفرنسية وأمارس تدريبات الملاحظة التى أحبها لميل طبيعى فى تأمل الوجوه والأشياء . ولم أعرف أهميتها إلا حين قرأت عبارة الروائى الفرنسى اميل زولا ناصحا أصدقاءه الأدباء : علينا أن نصعد إلى نجوم السماء بسلم الملاحظة الدقيقة !

والحمد لله كثيرا على ما حققته معى تدريبات الذاكرة من نجاح باهر خفف عنى الكثير مما كنت أعانيه بسببها ، صحيح أننى لم احفظ ولن أحفظ أبدا كما قيل عن الشاعر العباسى أبو نواس «شعر ٦٠ امرأة فما بالك بأشعار الرجال » ولا حفظت وهيهات أن احفظ «الف ألف حديث

شريف » كما قيل أن الأمام أحمد ابن حنبل قد حفظها ثم «تنخلها » أى فرزها واستصفى منها أكثر من ٤٠ ألف حديث ضمنها كتابه المسند ، لكننى على الناحية الأخرى لم أعد والحمد لله أزعج اسرتى بدق الجرس عليها فى الفجر لأنى قد نسيت مفاتيحى فى درج مكتبى بالأهرام سوى ثلاث أو أربع مرات على الأكثر فى السنة ، كما لم أعد استيقظ سوى مرتين على الأكثر كل سنة فى السادسة أو السابعة صباحًا على صوت الجرس فى شقتى فافتح الباب لأجد جارا فاضلا من جيرانى يشير لى مبتسما إلى مفاتيحى التى تركتها سهوا فى الباب من الخارج !

كما توقفت نهائيا والشكر لله عن اللجو إلى المبيت مضطرا من حين لآخر فى فنادق وسط المدينة إلى أن أقوم بتغيير كالون باب الشقة وصنع مفاتيح جديدة ، وذلك لأنى نسيت مفاتيحى فى مكان ما لا أعرفه كما كنت أفعل كثيرًا وأنا اعزب أعيش وحيدا فى مسكنى . . والفضل بعد الله فى هذا «النجاح الباهر » لتدريبات الذاكرة المفيدة . . ثم «للزواج » الذى شغل المسكن الخالى بمن استطيع أن «أدق » عليه الباب حين أنسى مفاتيحى !

وهذا كله انجاز عظيم أرجو ألا تنكره على ، خاصة إذا قارنتنى بصديقى الراحل المهندس عبد الحميد رحمة الله عليه وقد كان يسخر من تدريبات الذاكرة التى احثه عليها ، ثم حدث أن عاد صديقنا المشترك الاذاعى القديم الأستاذ يوسف الحطاب من عمل بالخارج غاب فيه عامين والتقينا ودعانا لزيارته فى بيته بحلوان فى مساء اليوم التالى ، وفى اليوم المحدد اتصل بى صديقى عبد الحميد يسألنى عن برنامجى هذه الليلة ،

فأجبته متعجبًا : هل نسيت ؟ ألسنا على موعد لزيارة «يوسف » فى بيته كما اتفقنا أمس فاستدرك سريعا وطلب مهلة للاتصال به أولا وعاد يتصل بى بعد قليل ليؤكد لى أن «يوسف » فى انتظارنا ، والتقينا فى وسط المدينة فوجدته يتجه إلى الدقى بدلا من حلوان ، وسألته هل غير صديقنا مسكنه فأجابنى بالايجاب ! ، ودخلنا إلى عمارة حديثة وصعدنا إلى الدور الرابع فيها ثم ضغط على جرس باب احدى الشقق وانفتح الباب فإذا بى أجدنى أمام الأستاذ يوسف عوف . . وليس يوسف الحطاب ! ولم أكن فى ذلك الوقت من ١٥ سنة أعرف الكاتب الفنان يوسف عوف ولا يعرفنى إلا بالاسم وليست بيننا أى علاقة ويبدو أنه فوجئ بصديقنا المشترك يتصل به ويبلغه «برغبتى » فى زيارته فلم يملك أدبا ومجامله إلا الترحيب ! واكتشفت فيما بعد أن صديقى عبد الحميد قد نسى تمامًا دعوة يوسف الحطاب لنا مع أنه لم تمض عليها سوى ساعات ولم يخطر بباله حين ذكرته بزيارتنا ليوسف إلا صديقه الآخر ورب غلطة ذاكرة خير من ألف ميعاد فلقد كانت بداية لصداقة اعتز بها مع يوسف عوف منذ ١٥ عاما لكنى لا اعتز أبدا ـ وأظنه هو أيضًا ـ كذلك بتلك اللحظة التى فتح فيها الباب فوجد «ضيفا » مذهولا ينظر إليه بدهشة . . ثم ينظر إلى صديقه الذاهل فى لوم صامت ثم يدرك الموقف سريعًا ويسترجع فى لمح البصر حوادث نسيانه المماثلة فيتلوى من الضحك المكتوم ويحاول أن يتغلب على الحرج ويبحث دون جدوى عن صوته ليرد على المضيف تحيته فلا يجد صوته المحشرج بالضحك والتعجب ، ثم يدخل الضيفان يتمايلان من الضحك بعد أن تنبه صديقى عبد الحميد لخطئه ألف رحمة على صديقى الطيب وأيامه الجميلة الموشاة

بوشى الحب الأخوى الصادق . . وألف لعنة على تدريبات الذاكرة لو كان قد اقتنع بها وأفلحت معه فحرمنى من صداقة يوسف عوف أو أى صديق جديد .

. . فى النهاية أريد أن أذكر لك شيئًا هامًا عن تدريبات الذاكرة . . أرجو الا تغفله هو . . هو . . عفوا لقد نسيت . . وتعبت أيضا !

قصيـرة .. ولكن حافلة !

هل تفضل أن تعيش حياة طويلة وإن كانت تعيسة أو باهتة بلا أضواء ولا أمجاد أو فـاترة بـلا حـرارة ولا تـميز فى أى شىء ؟ أم أن تعيـش حيـاة قصيرة ولكن حافلة بالأحـداث . . والإثارة والترقب والانفعال . . والتميز فى أى مجال من مجالات الحياة .

كثيرون سـوف يجيبون على هـذا السؤال بـأنهم يفضلون الحيـاة القصيرة الحافلة . . وآخرون سوف يقولون لك أننا لا نختار أعمارنا طالت أم قصرت لكننا نتمنـى لو كانت حيـاتنا مثيرة لا تعرف الـرتابة ولا الجمود . ومتـألقة بالنجـاح والانفراد والطموح . ونحن فعـلا لا نختار أعمارنا . . لكننـا قد نختار فى بعـض الأحيان حياتنـا . . وفى أحيان أخـرى تختارنا هـذه الحياة لنفسها ونستسلم لها نحن بلا متعة ولا إرادة .

وواحد من الـذين اختاروا حياتهم . . هـو الرسام الإيطالى مـوديليانى الذى تنتشر لوحاته الآن فى المتاحف العـالمية فلقد قال ذات يوم : أتمنى أن أعيش حياة قصيرة . . ولكن حافلة !

وعـاش بالفعـل حيـاة قصيرة . . لكنها لم تكـن حـافلـة بالنجـاح ولا بالشهرة ولا بالسعادة ، أما الإثارة فلم تشهدها حياته وإنما شهدها موته !

فلقد هجر بلاده إيطاليا وهو فى الثـانية والعشرين من عمره إلى باريس

وأقام فى غـرفة ضيقـة بإحـدى حارتها وأمضـى أيامـه ينحت التماثيـل . . ويرسم اللوحات ويسرف فى الخمر والمخـدرات ، فلم يمض وقت طويل حتى أصيب بالسل وواصل رسم لوحاته وهو ينفث الدم من فمه . وعرف الحب وأحـب فتاة فـرنسيـة اسمها جين هيبـوتـرن وعـاش معها بـلا زواج وأنجب منهـا طفلة . . وبعد شقـاء طويـل عرف بعض النجـاح وبدأت لوحاته تدر عليه بعض الفرنكات ، لكن وطأة المرض ازدادت عليه فجمع له أصدقاؤه بعض المال وأرسلوه إلى جنوب فرنسا للاستشفاء فى جو الجنوب الدافئ . . فلم تتحسن صحتـه ولم يتوقف نزيف صدره ، وعـاد من هناك أسوأ حالا . . فأدخلوه المستشفى وهو فى غيبوبة . . ومات بعد قليل وهو فى سن الشبـاب غريبـًا فى بلاد غريبـة ، وعاد أصدقـاؤه بالنبـأ الحزين إلى صـديقته . . فهـرعـت إلى المستشفـى وارتمت على صدره وغمـرت وجهـه بالقبـلات وانتزعـوها مـن فوق جثمانـه انتزاعـا وأعادوهـا إلى مسكنها . . فصعـدت درج السلم عـدوًا إلى السطح . . ثـم ألقـت بنفسها مـن فوقـه وماتـت وفى أحشائهـا جنين آخر عمـره سبعة شهـور . . وفارق الحبيبـان الـدنيـا فى يـوم واحـد . . كأنهما روميـو وجـولييـت فى مسرحيـة شكسبير الشهيرة .

ومثل مـوديليانى . . عاش الموسيقـار النمساوى شوبـرت حياة قصيرة أيضا وإن كان لم يتمن لنفسه هذه الحيـاة الخاطفة ، فلقد ولد فى فيينا وبدأ يتلقى دروس الموسيقى وهو فى الخامسة من عمره . . وأعلنت عبقريته عن نفسهـا وهـو فى الثـالثـة عشرة فبدأ يكتـب أعمالـه الموسيقيـة وكتـب عشر سيمفونيات أشهـرها السيمفونية النـاقصة وعشرات الأغانى والمقطـوعات

المتوسطة والقصيرة . . وحين بدأ يجنى أولى ثمار نجاحه وعبقريته . فاجأة الموت وهو فى الواحدة والثلاثين من عمره ، وانطوت صفحة حياة كان عناؤها أكثر من سعادتها وبهجتها .

وربما يكون الاسكندر الأكبر وحده . . هو من يستطيع أن يقول أنه عاش حياة قصيرة ولكن حافلة بما لا تتسع له حياة كثيرين مهما طالت . فلقد بدأ رحلته للمجد وهو فى سن الصبا . . وروى بعض المؤرخين أنه وهو فى سن المراهقة ، عرض البعض على أبيه فيليب المقدونى حصانًا كريمًا ليشتريه بمبلغ كبير ، واختبره الأب ولم يستطع أحد من قواده أن يركبه ، فقد كان الحصان يقف على رجليه الخلفيتين ويتوثب فزعًا كلما حاول أحد ركوبه فيئس منه فيليب وأمر باستبعاده ، وفوجئ بالاسكندر يطلب منه السماح له بترويض هذا الحصان الجامح ، ونهره الأب لتوقحه على الضباط الكبار الأكبر منه سنًا لكن الاسكندر أصرّ فسأله ساخرًا : أتظن أنك ستنجح فيما فشل فيه هؤلاء القواد الكبار ؟ فأجابه بهدوء : نعم ، ووافق الأب ضاحكًا . . واقترب الاسكندر من الحصان وسط ضحكات الأب والضباط فأمسك بعنان الحصان وأداره برفق بحيث يواجه الشمس ثم ربت عليه بحنان وامتطاه فإذا بالحصان يسلم له قياده ويتمشى به الاسكندر جيئة وذهابًا وسط ذهول الحاضرين ، وسأله فيليب عما صنع بالحصان فأجاب ببساطة : كانت الشمس خلف الحصان . . فكان يفزع من ظله الذى يرتسم على الأرض أمامه . . فأدرته بحيث يقع ظله خلفه . . فهدأ وأسلم لى قياده ! وبهر الأب بعبقرية ابنه وقوة ارادته فقال له معجبا : ان أرض مقدونيا لأضيق من أن تتسع لك .

وصدقت نبوءتـه فلم تتسع له بالفعل وخرج منها فـأخضع المقاطعات المجاورة وهـو فى بداية سن الشبـاب ثم قاد جيشه إلى الشرق ففتـح الممالك والبلاد وهزم الفرس وامتدت فتوحاته إلى الهند وصاحبه هذا الحصان فى كل فتوحاته حتى نفق فى الهند .

ثم أصيب الاسكندر بالملاريا . . وتناوبتـه الغيبوبة وفى احدى نوبات صحوه سألوه أن يختار من يخلفه فى قيادة الجيش فرفض قائلا: يخلفنى من الرجـال خيرهم ! ثم مـات فى الثالثـة والثلاثين من عمـره القصير الحافل بالانتصارات والأمجاد . . والبطولات . .

وبعده بسنـوات عديدة قرأ قيصر فى رومـا وهو فى الثالثة والثـلاثين من عـمره سيرة الاسكندر فانفجر باكيًا . . وسألوه عن سبب بكائه فأجاب بأن الاسكندر كان فى مثل عمره حين أتم كل فتوحاته وأعماله الباهرة ومات أما هو فإنه لم يبدأ بعد أى عمل يخلِّد اسمه فى التاريخ !

ومع أن هناك عباقرة وعظماء وعلماء وفلاسفـة وشعراء مجيدين طال بهم العـمر أو عـاشوا حياة طبيعيـة فى أمدها ، فإن هنـاك أيضًا عباقـرة وفنانين ومبدعين كثيرين «أشعلوا شمعة حياتهم مـن طرفيها » على حد تعبير أحد النقاد الانجليز فذابت الشمعة وذوت سريعًا .

وفى تاريخ الأدب العربى قصة طريفة تفسر هذا التعبير بشكل أفضل ، فلقد كان الشـاعر العربى أبو تمام حاضر البـديهة ويحفظ عشرات الألوف من أبيات الشعر ، وقد مديح يـومًا أحمد بن المعتصم فى حضور الفيلسوف الكندى بقصيدة طويلة إلى أن وصل إلى قوله فيها :

إقدام عمرو فى سماحه حاتم

فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقاطعه الكندى قائلا : الأمير فوق ما وصفت وما زدت أن شبهته ببعض أجلاف العرب ، فصمت أبو تمام قليلا ثم قال :

لا تنكروا ضربى له مَنْ دونه

مثلا شرودًا فى الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره

مثلاً من المشكاة والنبراس !

وحين أخذوا القصيدة المكتوبة منه لم يجدوا فيها هذين البيتين فتعجبوا لسرعة بديهته وحدة ذكائه وقال الفيلسوف للخليفة : مهما يطلب فأعطه فإن فكره يأكل جسمه . . وهو لا يعيش كثيرا! فولاه أحمد بن المعتصم بريد البصرة . . ولم يطل استمتاعه بالحياة فعلاً أكثر من عامين ومات فى الأربعين من عمره !

وتحققت نبوءة الكندى . . أو توقعه له .

وكثيرون هم من أكل « فكرهم أجسامهم » . . فلم يطل مقامهم على الأرض . . ولم تتسع حياتهم لكل ما أرادوا أو حلموا به .

فالموسيقار العبقرى شوبان مات هو أيضا فى الأربعين من عمره وهو يبصق الدم والسل ينهش صدره كالرسام الإيطالى موديليانى . . ومثله أيضا مات فى باريس غريبًا عن بلده بولندا .

والموسيقار النمساوى يوهان شتراوس أعظم عازف ومؤلف لموسيقى الفالس مات فى الأربعين من عمره بعد أن كتب أكثر من ١٥٠ مقطوعة من موسيقى الفالس وحدها وقبل أن يستمتع بما حققه من شهرة .

والرسام الهولندى الشهير فان جوخ الذى تباع لوحاته الآن بملايين الدولارات مات قبل أن ينجح فى بيع لوحة واحدة من أعماله وهو فى السابعة والثلاثين من عمره ورحل عن الدنيا بعد حياة قصيرة حافلة بالآلام والمعاناة حتى لقد اعترته فى أواخرها نوبات قاسية من الجنون !

ثم كم سنة عاشها أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف الذى أثرى الحياة والأدب العالمى بكل هذا الفهم للإنسان وآلامه وعذاباته ؟ ٤٤ عامًا فقط لا غير ثم مات مريضًا بالسل قبل أن «يتم عمله » ويهدى للإنسانية المزيد من نفثات عبقريته .

أما الكاتب الروسى الشهير جوجول رائد الواقعية فى الأدب الروسى ومؤلف عدد كبير من المسرحيات أشهرها عندنا «المفتش العام » فإنه عاش أقل من تشيكوف ومات وعمره ٤٣ عامًا فقط . . ولو عاش لتضاعف أثره فى الأدب العالمى . وكم طال عمر الامام محمد عبده الذى اتسع لكل ما اتسع له من طلب للعلم وجهاد ونفى وعودة لمصر ونشر للعلم ودعوة للاصلاح الدينى وتفسير وإفتاء الخ ؟ لقد عاش أقل من ٥٧ سنة ومات بالسرطان فى الاسكندرية ودفن بالقاهرة عليه رحمة الله ورضوانه . . أما ابن المقفع الذى ما زال أثره فى الأدب العربى باقيًا للآن فقد قتل وعمره ٣٥ عامًا فقط لا غير !

وكم سنة عاشها أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسوريا من مولده إلى مجيئه لمصر واليًا من قِبل العباسيين إلى استقلاله بحكم مصر إلى ضمه لسوريا إلى حكمه ؟ ٤٩ عامًا فقط .

بل وكم سنة عاشها نابليون بونابرت منذ ميلاده إلى صعوده من ضابط

كورسيكى صغير . . إلى قنصل فرنسا . . إلى امبراطورها إلى سيد أوروبا الذى يتلاعب بعروشها وتيجانها ويوزعها على إخوته وأقاربه . . إلى اجتماع أوروبا لمحاربته إلى سقوطه فى الأسر . . والنفى حتى مات بالسرطان فى جزيزة «سانت هيلانة» حسيرًا ؟ إن هذه الرحلة الحافلة التى شهدت كل هذه الأمجاد والأهوال لم تستغرق أكثر من ٥٢ عامًا فقط لا غير ولا عجب فى ذلك فحساب الأيام والسنين فى حياة العظماء يختلف فيما يبدو عنه فى حياة البسطاء من أمثالنا .

أما الشعراء والأدباء والكتّاب الذين «أكل فكرهم أجسامهم» وماتوا فى سن الشباب أو قبل الكهولة فلا حصر لهم ولا عد من أبى القاسم الشابى حتى أمل دنقل وعليهم جميعا تنطبق كلمة الفيلسوف الفرنسى هرفييه : إن الإنسان يموت دائمًا قبل أن يتم عمله وان هذا هو أكثر أحزان الحياة إثارة للشجن ! .

وبعد كل هذا . . ماذا تفضل : حياة طويلة فاترة وخامدة . . أم حياة قصيرة مثيرة . . وحافلة بالأحداث والأمجاد ؟ إذا سألتنى رأيى أجبتك أنى ككل إنسان قد دعوت ربى دائمًا أن أعيش حياة هادئة آلامها محتملة . . أو فى حدود احتمالى وليس يعنينى بعد ذلك أكانت طويلة أم قصيرة . . حافلة أم خامدة ؟ لامعة أم باهتة ؟ لأن لحظة واحدة من السعادة الحقيقية قد تعدل العمر كله . . وقد تعوضنا عن كثير مما أردنا لأنفسنا . . وعجزنا عن أن نحققه . . أو نناله فى رحلة العمر .

وما زلت أدعو . . فشاركنى الدعاء أنت أيضا . . ولا تسألنى هذا السؤال مرة أخرى . . !

لا تنظــر خلفـك !

كنت فى سنـوات شبابى ــ حين يتبدد الأمـل فجأة فى نيل مـا تمنيته فى نفس اللحظـة التى لاح لى فيهـا أنه قـد بات قـريب المنـال منى ــ اتساءل متعجبا من انفلاته من بين يدى : لكنى «لم انظر خلفى » فلماذا تلاشى فى الهواء فجأة بعد أن شقيـت للوصول إليه؟! فـلا يزيدنى تسـاؤلى إلا معاناة ومكابدة . .

وكنـت فى ذلـك اتمثـل الأسطـورة الاغريقيـة القـديمـة التـى روت أن أورفيـوس ابن ربـة الفن عنـد الاغـريق قـد عـُرف بمهارتـه فى فن السحـر والحكمة واشتهـر بسحر مـوسيقاه التـى تطرب لها الأشجـار فتتحرك وراءه وتتبعـه حيث يسير . . وتتـوقف الأنهار عـن جريـانها حين تسمع الحانـه الجميلـة على القيثـاره وكـان أورفيـوس قـد أحـب الجميلـة يـوريـديسـى وتزوجها . . لكـن حياتها معه لم تطل فقـد ماتت بلدغـة ثعبان وهى تحاول الهرب من إله الصيـد الذى طاردها لـلإيقاع بها وغرق أورفيوس فى احـزانه وصمم على إعادة حبيبته الجميلة إلى عالم الأحيـاء مرة أخرى وهبط إلى عالم الموتى واستطـاع بسحر مـوسيقاه أن يستـولى على قلب ملـك العالم السفلى فرق لـه واستجاب لـرجائه بأن يسمـح لزوجته بـالعودة معـه واشترط عليه شرطـا واحدًا ينبغـى أن يلتزم بـه لتتحقق امنيتـه وهو أن يمضـى من فـوره

صاعـدا إلى دنيا الأحيـاء واثقا مـن أن حبيبته تتبعـه وألا ينظر خلفـه ليرى وجهها طوال رحلـة الصعود وإلا اختطفتها الأشباح التى ستـلازمها طوال الرحلـة وإعادتها إلى العالم السفلى من جـديد وشكره أورفيـوس بحرارة . . ومضى من فوره عـائدًا إلى دنيا الأحياء ويوريديسى تتبعـه . . لكن الرحلة طالـت قبل أن يقترب من سطـح الأرض وغلبه الشوق لأن يتطلـع إلى وجه حبيبته التى لم يذق طعم السعادة منذ فارقتـه . . فاستدار فجأة ليتأكد من أنها تتبعه . . فلم يكد يفعل حتى اختطفتهـا الأشباح وأعادتها من جديد إلى عالم الموتى !

وواصل اورفيـوس الرحلة يـائسًا وعاش أيامـه حزينا كئيبًا . . واعتزل النساء فلم يطق النظر إلى وجه امرأة بعد ضياع حبيبته من يديه حين أوشك على الفوز بها . . وحقـدت عليه نساء المدينة لتجـاهله لهن فانتهزن فـرصة أحد الاحتفالات العامة وقطعنه اربا . .

وعلى مر الـزمن أصبحـت قصـة هبوط اروفـيوس إلـى عـالم المـوتى رمـزا لفكرة متشـائمة تقول إن الإنسان لن يستطيع الحصـول على ما يتمنى مـن السعـادة إلا فى العالم الآخـر . . وإنه كثير ما تكـون أقـرب لحظـاتنا إلـى نيـل السعادة هى نفـس اللحظـة التـى تتبـدد فيهـا وتغيـب عنا إلى الأبد ! . .

ولأنى لست مـن المتشائمين . . فلقد استخلصت مـن فكرة الاسطورة درسًا آخر أكثر تفاؤلا هو أن تعجُّلنا تحقيق الأهداف قبل موعدها الطبيعى قد يؤخر وصولنا إليها ويبعدها عنـا بدلا من أن يقربها منا وإنه من الحكمة إلا نبالـغ فى التلهف على بلـوغ آمالنـا فى الحياة فنسهـم فى إبعادهـا عنا بها

نـرتكبه مـن أخطـاء التسرع وسـوء التقديـر التـى تفسـد علينـا أهــدافنا وتبعـدهاعنا . .

ومن هنا كان تساؤلى الحائر حين اسعى لهدف مشروع فى الحياة ملتزما بكل شروط ملك العالم السفلى على أورفيـوس ثم يقترب الهدف . . ويلوح قريب المنال واتهيأ لاستقباله فإذا بأشباح القسمة والنصيب تبعده عنى . . ثم علمتنى الحياة فيما علمتنى الا آسى كثيراً على شـىء فاتنى . . ما دمت قد سعيت إليه باخلاص وأديت ما ينبغى علىّ اداؤه للوصول إليه . . ذلك أن تحقق الآمال بعد كل ذلك رهين بـارادة الخالق وبما سُطر لكل إنسان فى اللوح المحفوظ فآمنت دائماً أن احق الناس بمعاناة الحسرة . . ليس هو من سعى وكافح وبذل اقصى جهده للـوصول إلى سعادته واهدافه المشروعة فى الحياة . .

وإنما هو ذلـك الإنسان الذى قصر فى حـق نفسه ولم يسع سعيـا جادًا شريفـا وراء أهدافـه . . ولم يفعل مـا ينبغى عليـه أن يفعله لكـى ينال مـا يأمله . .

فالأول يجد مبررا للرضا عن نفسه هو أنـه لم يدع سبيلا مشروعا لنيل ما اراد لكن الأقـدار شاءت شيئا آخر ففـاز بشرف المحاولة وإن لم يفـز ببلوغ الأمل . . كما أن من يسعى إلى أهدافه ولا يخطئ فيتعجل الوصول إليها قبل الأوان ولا يتحسر على ما لم ينله ، قد تدخر له الأقدار جوائزها بعد حين فيما يمكن أن يسميـه الإنسان «بـالألطاف الخفية » وهـى تلك التـدابير الإلهية التى قـد تأتينا أحيانـا بما نكره فى بعض مـواقف الحياة لتحقق لنـا فيها بعد أجمل ما نحب . .

وفى حياة كل منـا لمحات أو مواقف اكتأبنا لها وشقينـا بها وثقلت علينا وربما تساءلنا بادراكنا المحدود : لماذا اختصتنـا بها الأقدار وحدنا . . ثم لم تلبث أن تكشفت لنا بعد حين نتائجها الخيرة وعـرفنا إن ما شقينا به لم يكن فى الحقيقة إلا «مقدمة للسرور» على حد تعبير أديـب فرنسا العظيم فيكتور هوجـو وفهمنا فى هـذه اللحظة المعنـى العميق الجليـل للآيـة الكريمـة : «وعسى أن تكرهـوا شيئا وهو خير لكم . . وعسى أن تحبـوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» . .

بل وربما تذكـرنا حكاية «حـائك الملابس» التى رواها المفكـر الفرنسى مونتسكيو حين قـال «إن رجلا ذهب إلى دوق أورليان فى فرنسـا وطلب منه الإذن له بارتداء بذلة رسمية موشـاة بالقصب ليبدو شريفا وجميلا ونبيلا فى أعين الناس ، ولم يكن مـن المسموح للعامة فى فرنسا فى العصـور الوسطى ارتداء أنواع معينة من الملابس بغير إذن خـاص من البلاط الملكى فقال له دوق أورليان : اسمح لك بذلك بشرط موافقة حائك الملابس»!

أى أن نيل ما يتمناه من الشرف والجمال والنبل يتطلب ليس فقط موافقة البلاط . . بل وأيضا موافقة حائك الملابس الذى سيصنعها له . . وموافقة من سيعطيـه المال لشراء الملابس إن لم يكـن معه ثمنهـا . . وموافقـة بائع القماش على بيعه له الـخ . . لأن تحقيق مطالبنا من الحياة لا يتـوقف علينا وحدنا . . وإنما على أناس آخرين . . وعلى ظروف قد تسمح أو لا تسمح بتحقيقها فليس يكفى أن نطلب لأنفسنـا السعادة لكى تتحقق وإنما هناك دائما «حـائك الملابـس» فى مكان مـا لابد من مـوافقته لكـى «نرتـدى» ما تطمئن به قلوبنا . .

لهذا كثيرا ما أقول للمهمومين الذين يتعـذبون برغباتهم المشروعة الملحة فى السعادة والأمان ، إننا نستطيع أن نتحكم فى أنفسنا لكننا لا نستطيع أن نتحكم فى الآخرين الذين تشقينا تصرفاتهم وخياناتهم واحقادهم ونذالتهم وخـذلانهم لنا . . ومـا دام الأمـر كذلـك فلسنـا نملك إلا أن ننفـذ الجزء الخاص بنا مـن روشتة العـلاج وهو أن نتغير نحـن آملين أن يتغير الآخرون للأفضـل أو أن تلقنهم الحيـاة دروس الألم فيعرفوا لنـا أقدارنـا وأن علينا أن نحجّم بقـدر الامكان تأثير تصرفاتهم علينـا فننجو من بعض المعـاناة التى «يهدونها » إلينا بأفعالهم ردا على هدايا الاخلاص والـوفاء التى قدمناها لهم والمهم هو أن نحدد أهـدافنا ونختار من الوسائل ما يقـودنا إليها وليس إلى غيرها ثم نترك الأمـر بعد ذلك لمن بيده الأمـر سبحانه . . فإن شـاء منحنا جوائزه وكشف لنـا عن نتائج ألطافـه الخفية بعد حين وإن لم يشأ ادخـر لنا سعـادتنا المفقـودة إلى أجل آخـر وفى كـل الأحوال . . وفى إنتظـار موافقـة «حائك الملابس » على تحقيق ما نريد من الأمان والسلام وراحة القلب . . فإن المهم دائما هو ألا نعانى لحظـة واحدة زائدة نستطيع بحكمتنا وبفهمنا لحقائق الحياة أن ننجو منها ونوفرها على أنفسنا وألا نبكى لحظة على ما فاتنا ولا يفيدنا البكاء عليه فتيلا والا نتعجل يوما ما تصبو إليه نفوسنا حتى وإن لاح لنـا قريـب المنـال قبل أن يـأذن الله برسـوه فى مـرافئنا المنتظـرة فى صبر ورجاء . . فهـل نستطيع أن نفعل حقـا بغير أن ننظر إلى الوراء مـرة واحدة خلال رحلة الصعود ؟!

حيـــاة صاخبـــة !

هناك أشخاص تصدق عليهم كلمة الروائى البريطانى الشهير أوسكار وايلد حين قال : لقد وضعت كل عبقريتى فى حياتى . . ولم أضع منها إلا القليل فى كتبى ! فتأثيرهم فى مجالات ابداعهم قد يكون محدودا أو قليلا . . لكن حياتهم عريضة وحافلة وشخصياتهم مبهرة لا تستطيع أن تمنع نفسك من الاعجاب بها والتوقف أمامها متأملا حتى ولو اختلفت مع أصحابها .

ومـن هؤلاء كـانت شخصيـة الفنان أحمد سـالم الـذى عرفتـه الشاشـة البيضاء فى الأربعينيات نجما لعدد محدود من الأفلام ، وشخصية فريدة من شخصيات المجتمع المصرى آنذاك . .

لقد بدأ اهتمامى به بمقالات متفرقـة قرأتها عنه وكان معظمها يركز على شخصيته الفذة أكثر مما يتحدث عن فنه أو أفلامه التى اخرجها ومثلها . . ثم كـان من حظى أن عرفـت صحفيا قديما كـان من أقرب أصدقـائه ومن أكثر الناس إنبهارا به فتقصيت منه حقيقه ما قرأت . . فأكده وأضاف إليه ووجدت نفسى أمام شخصية عجيبة لو صـاغها مـؤلف فـى عمل أدبـى لا تهمه النقاد بالمبـالغة والافتعال . . فأحمد سالم شاب ثـرى ورث عن أبيه مع شقيقاته أراضى زراعية واسعة ومـالا وفيرا ، وكان منذ صباه فتى جريئا مقتحما يعيش حياتـه بـانطلاق لا يعـرف الحدود ولا القيـود . . وقد بـدأ

مغامـراته بتعلم الطيران وكـاد يفقد حياته ذات يـوم بسبب هذه الهوايـة ثم استهواه عالم السينما الجديد فاقتحمه بلا تردد ومثل وانتج وأخرج عدة أفلام ثم التقى بالمطربة اسمهان فى فندق « الملك داود » بالقدس وهى مُبعدة عن مصر للشك فى تعاونها مـع المخابرات البريطانية ، فتزوجهـا وأعادها لمصر وعاش معها فترة قصيرة مشحونة بالقلق والحيرة والغيرة فقد كانت اسمهان على علاقة بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى فى بداية الأربعينيات ، وشك أحمد سالم فى خيانة أسمهان وواجهها مـواجهة عاصفة واطلق عليها رصاصة لم تصبها وهم بالانتحار فـأسرعت بالفرار واتصلت بحسنين باشا لتطـالبه بـان يتصرف قبـل أن ينتحـر أحمد سالم وينتشر الخبر ويتحـول إلى فضيحة تدوى فى مجتمع القاهرة . . وارسـل إليه حسنين باشا ضابطا كبيرا بالشرطة كان معـروفا بالنعومة وسعة الحيلة . . فحـاول انتزاع المسدس من يده فأطلق عليه أحمد سالم رصاصـة لم تصبه وإنما أصابته هو فى كتفه ونقل إلى مستشفـى قصر العينى تحت الحراسـة . . وفى المستشفى تجمـع حولـه الأطباء الشبان الذين اجتذبتهـم بسهولة شخصيته المثيرة وأصبحوا يمضون معه السهرة كل ليلة يلعبون الورق ويستمعون إلى أحاديثه الشيقة . .

وذات مسـاء أراد أحدهـم إن ينصرف إلى النوم قبـل انتهاء السهـرة لأن لـديه جـراحـة لاستئصـال الزائدة الـدوديـة سيجـريها لمريض فى الصبـاح الباكر . فإذا بأحمد سالم يسخر مـن هذه الجراحة البسيطة التى لا تستحق أن يغادر السهرة مـن أجلها . . والتى يستطيع أى إنسـان أن يقوم بها بغير حاجة لدراسة الطب . . بل إنه هـو نفسه يستطيع أن يقوم بها نيابة عنه إذا ساعده احد فى اعداد المريض للجراحة ويتحداه الطبيب فى إنه لا يستطيع

ولا يجرؤ على الامساك بـالمشرط لاستخـراج جــزء مـن جسـم إنســان . . فيستجبب أحمد سالم للتحدى على الفور ويراهنه على أنه يستطيع أن يفعل ومستعد للـرهان على ذلك ، وفى لحظـة حمق وجنون اتفق الطبيـب الشاب وكان من أبناء انذوات مثله وابنا لعميـد كلية الطب الذى يعتبر واحدًا من أعلام الطـب فى الشرق ، مع أحمد سالم على ان يدخـل معه غرفـة الجراحة ليقوم هو بتخدير المريض وفتح بطنـه ثم يسلم له المشرط ليستأصل الزائدة متـوقعـا أن تخونـه شجـاعتـه فى اللحظــة الأخيرة ويحجـم عـن مـواصلـة التحدى . . ولكن هيهات أن يحجم الشاب المغامر عن شىء ولو كان ضد كل منطق وعقل . . وفى الصباح دخل معه غرفة الجراحة وامسك بالمشرط واستأصل الـزائدة وسط ذهول الأطباء . . وانتهـت المأساة بعد فترة قصيرة بوفاة المريض . . وتحولت الدعابـة السوداء إلى كارثة تهدد مستقبل الطبيب الشاب الـذى جارى أحمد سـالم فى هذا الجنـون . . لكن المجـاملة لـلأب العميد لعبت دورهـا فى تكتم الفضيحة وساهم فيهـا ضعف أسرة المريض الفقير وجهلهـا بماحدث . . أصبحـت المغـامرة المجنـونـة قصة تـروى فى مجتمعات المدينة وتضاف إلى سلسلة مغامـرات هذا الشاب الذى لا يعرف الحدود والسدود . . .

وبعد قليـل تمت تسويـة المشكلة التى سجـن من أجلهـا أحمد سالم فى المستشفى . . وعـاد للظهور فى منتديـات القاهرة وسهـراتها . . شابا ثـريا انيقا يرتـدى القميص لمرة واحدة فى حياته . . ثم يهديـه لغيره . . وإنسانًا رقيقًـا مهذبـًا ، شهما وكريما مـع الجميع لا تملـك مـع جرأتـه الجنونيـة إلا الاعجاب بشخصيته والتأثر بها إذا اقتربت منه ! وعاد لينافس الملك فاروق

فى قلوب فـاتنات السينما والملاهى الليليـة . . وسيدات المجتمـع ويتعمد انتزاع عشيقاته منه أو من يتطلـع إلى كسب حبهن فتؤثره كثيرات منهن على الملك العابث اللاهى وتتدله فى حبه ممثلة السينما المصرية اليهودية الديانة ، الصارخة الجمال كاميليا التى كانت أيضا من عشيقات فاروق ، وتطارده فى كل مكان . .

ثـم قـادته مغـامـراتـه إلى اقتحـام دنيـا رجال الأعمال فـأسـس شركـة للمقـاولات جعل مقـرها عمارة الايمـوبيليا بـالقاهـرة . . ومارس العمـل بشخصية البـك ابن الذوات الـذى يحترمه مقاولو البـاطن المتعاملـون معه ويتهيبونه . . لكن دنيا الأعمال لا تستقر على حال . . وفى احدى موجات الكسـاد تـأخر صرف مستحقـات مـاليـة كبيرة للبك رجـل الأعمال لـدى المصالح الحكومية . . فتأخر أحمد سالم فى سداد مستحقات مقاولى الباطن لفترة طويلة . . وصبر المقاولون من أبناء البلد لفترة ثقة فى وفاء ابن الذوات وارث آلاف الأفدنة بديونه . . لكـن الفترة طالت ، فبدأوا يتململون وكثر ترددهـم على المكتب للسـؤال عن مستحقاتهم . . يتـوجهون بمطـالبتهم للسكرتير الخاص ولا يجرؤون على مـواجهة البـك بها . . ثم طـالت الفترة وبدأت أصواتهم تعلـو بالمطالبة والاحتجـاج حتى بلغت مسامـع البك فى حجرته الوثيرة وهو بين ضيوفه من الباشوات والبكوات فيكتم غيظه ويعتزم امرًا . .

ثم حل أخيرا موعد صرف مستحقاتـه الحكومية فطلب من سكرتيره أن يشترى حقيبة ملابس ويتوجـه بها للبنك لصرف المبلغ الكبير مشترطا عليه أن يكون كلـه من فئات نقـدية صغيرة ليدفـع للمقاولين حقوقهـم ، ونفذ

السكرتير التعليمات حرفيا وجاءه بحقيبة ملابس منتفخة فأمره بافراغ محتوياتها على المكتب والانصراف لاستقبال المقاولين . . وبعد قليل طلب البك دخولهم واحدًا وراء الآخر . . ودخل أولهم فرأى مشهدًا ذهل له ! رأى البك يجلس مسترخيا فى مقعده الكبير وقد مد ساقيه فوق تل عال من أوراق البنكنوت على المكتب . . وفى يده سيجار فاخر . . وما أن دخل حتى بادره البك بصوت هادئ : أهلا يا معلم فلان ، كم لك عندنا من نقود؟

فإذا بالمعلم يجيبه بعفوية : نقود إيه يابك . . لقد جئت اسأل عن عمل جديد تكلفنى به . . فقد مضت فترة طويلة لم نسعد فيها بالعمل مع سعادتك !

فيهز البك الخبير بالنفوس البشرية رأسه فى ثقة ثم يعده بعمل جديد قريبا . . ويشير له بالانصراف فينصرف شاكرا ومحييا من غير أن يتقاضى مليما من مستحقاته !

ويتكرر المشهد بكل تفاصيله مع باقى المقاولين . . فينصرفون جميعا شاكرين تعطف البك عليهم ووعده لهم بأعمال جديدة ودون أن يتاقضوا ديونهم التى علت أصواتهم من قبل للمطالبة بها ثم يغادر أحمد سالم مكتبه بعد قليل تاركا للسكرتير أن يدفع فيما بعد للمقاولين بعض مستحقاتهم . . ويوفر البعض لمطالب حياة البك الباهظة !

ويتعجب السكرتير من هذا المشهد الذى يشبه قصة مثيرة للتأمل من قصص تشيكوف . . أما هو فلم يتعجب لشىء لأن حياته المثيرة المليئة بالمفارقات وبالصعود والهبوط لم تترك له مجالا لان يتعجب لشىء . .

ثم تتوالى المفارقات الغريبة فى حياته إلى أن تبلغ قمة الهزل والاثارة حين قدم للمحاكمة فى احدى تقلبات الزمن العديدة معه بتهمه توريد صفقة خوذات عسكرية المفروض أن تكون من الصلب لتقى رءوس الجنود من الرصاص والشظايا ، لكن الفحص اثبت أن حصاة صغيرة متطايره قد تستطيع اختراقها ! وقام الخبير بتجربة عملية فى قاعة المحاكمة لاثبات ذلك فنجح فى خرق احدى هذه الخوذات بقطعة حجر صغيرة . .

وتداول القضاء القضية لفترة طويلة . . والبك يواصل حياته العجيبة بلا أى انزعاج . . وينفق الألوف فى بعض الليالى . . ويشح المال فى يديه فى أيام أخرى فلا يتغير شىء فى حياته . . فهو النجم الذى يستقبل استقبال الفاتحين فى كل مكان يحل به سواء أكان مفلسا ام يتدفق المال بين يديه . . وروى لى صديقى الصحفى المخضرم الذى كان صاحب مجلة فنية معروفة ورئيس تحريرها فى ذلك الوقت ، أنه ألمت بصديقى هذا ضائقة مالية عابرة فشغلت فكره وفى غمرة اكتئابه فوجئ ذات مساء بأحمد سالم يزوره فى مكتبه ومعه ٤ من أصدقائه والجميع فى ملابس السهرة السوداء الفاخرة ، ولاحظ أحمد سالم اكتئابه وعرف منه أسبابه . . فهون عليه الأمر واصر على الترويح عنه بدعوته لتناول العشاء والسهر معهم فى مطعم سان جيمس الذى كان من أرقى منتديات القاهرة ، فاعتذر له صديقى بأنه ليس مستعدا نفسيا لذلك ، فأصر على ألا يدعه لاكتئابه والح عليه بمصاحبتهم . . فاعتذر له بأنه مفلس وليس مستعدا ماديا فأجابه أحمد سالم بأنه مفلس أكثر منه ومع ذلك فسوف يدعوه للعشاء والشراب فأراد أن يتهرب من الدعوة ، فاعتذر له بآخر اعذاره وهو أنه ليس مستعدًا حتى

من ناحية الملابس فهو يرتدى القميص والبنطلون وهم يرتدون بدل السهرة الكاملة ، واعتقد أنه قد اقنعه بذلك لا محالة . . لكن هيهات أن يحول بين أحمد سالم وبين ما يـريد من شيء فقـد نهض صامتا وخلع فى هـدوء ربطة عنقه وجاكتته وشمر أكمام قميصه وأمر أصدقاءه ففعلوا مثله فى ثوان . . ثم قال له : ها قد أصبحنا جميعا بالقميص والبنطلون فهيا معنا !

وخرج الجميع إلى سان جيمس واستمتعوا بقضـاء ليلة سعيدة من ليالى العمر . . وانصرف أحمد سالم وهو يشير إلى رئيس الجارسونات بكبرياء بأن يضيف إلى قيمة الفاتورة عشرين جنيها كبقشيش له . . وكان مبلغا خرافيا فى الأربعينيات وأن يرسل الفاتورة إلى مكتبه لسدادها فيما بعد . . وينحنى الرجل شكرا واحترامًا وهو يودع البك وضيوفه حتى باب السيارة . .

وتتلاحق الفصـول المثيرة فى قصة حياته . . وتبلـغ إحدى قممها حين يبـدد معظـم ما ورثـه مـن أرض زراعيـه لا تخصه وحـده وإنما تخص معـه شقيقاته لكى يواجه تكاليـف حياته الباهظة . . وبغير أن تحتج الشقيقات عليه أو ينازعنه فى شيء . . أو يتأثر حبهـن له وإعجابهن به حتى اللحظة الأخيرة وبرغم ما بدد من مالهن !

ثـم تـجيء النهاية الأكثر درامية لتلـك الحياة العريضة الصـاخبة رغـم قصرها ويمـوت أحمد سالم فى شرخ الشبـاب . . فهـل تعرف كيـف مات؟

بانفجار فى الزائدة الدودية فاجأة على حين غرة قبل إن يجرى له الأطباء تلك الجراحة البسيطة التى سخر منها ذات يوم وقال أن أى إنسان يستطيع أن يقوم بها بغير حاجة لدراسة الطب . !

« وما ربك بظلام للعبيد » صدق الله العظيم . .

وانطوت بذلك صفحة عجيبة من صفحات الحياة . لم يؤلفها مؤلف . . ولم يبتدعها خيال كاتب ، وإنما ألفها الزمن «أعظم المؤلفين » كما قال ذات يوم الفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون !

ابدأ القلق .. واستمتع بالنجاح !

فى احدى القرى الصغيرة المنعزلة نشأ فتى صغير بين أبوين فقيرين جاهلين فشب خجولا متهيبا يحس بالنقص تجاه زملائه الأثرياء بالمدرسة وينعقد لسانه من الحياء إذا أراد أن يتكلم أمامهم ويتلقى نظرات الاحتقار والازدراء منهم . وكان تلاميذ مدرسته يتنافسون على الفوز ببطولات الألعاب الرياضية فحاول أن يكون من أبطال المدرسة لينال احترام زملائه وفشل . . فقرر أن يتحول إلى مجال آخر . . وانضم إلى جماعة الخطابة والمناظرات وكل أمله أن يتدرب على التغلب على خجله وخوفه من الكلام فى مواجهة الآخرين . . فلم يمض وقت طويل حتى كان قد تغلب على حيائه وتفوق فى الخطابة والالقاء وفاز بالمركز الأول فى مسابقة المدرسة . . فتغيرت نظرة زملائه إليه وأصبحوا يحترمونه ويتقربون إليه . وعرف من هذه اللحظة إن الاحترام قرين التفوق فى أى مجال من مجالات الحياة وان الخوف والقلق اللذين يسيطران على الإنسان يكبلان قدراته على مواجهة مشاكله . .

وبعد إن انهى دراسته الثانوية التحق بمدرسة لدراسة فن الالقاء وعمل مدرسًا للالقاء بمدرسة ليلية يلقى على تلاميذه من الكبار دروسًا فى كيفية التغلب على الخجل والخوف والتعبير على أنفسهم بغير اضطراب . .

ونجحت دروسه واجتذبت عددًا كبيرا من الدراسين . . فحدد ذلك طريقه فى الحياة واستقال من المدرسة وافتتح لنفسه معهدا صغيرًا يحمل اسمه يعلم فيه الدراسين كما قال هو : كيف «يكفُّون » عن القلق والخوف ويؤثرون فى الناس فلم تمض أعوام قليلة حتى كان لمعهده الصغير هذا أكثر من ١٧٠ فرعا فى انحاء أمريكا وكندا وبعض دول أوروبا وحتى أصبحت كتبه ومناهجه واسعة الانتشار فى كل مكان .

وكان الشاب الناجح قد ألف ٤ كتب لم تلق رواجا يذكر وعندما افتتح معهده بحث عن كتاب يصلح أساسًا للدراسة فيه فلم يجد فاضطر لأن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ثم دفعه للمطبعة وهو يرجو له حظا أفضل قليلا من حظ كتبه السابقة فإذا بكتابه هذا يطبع ٧٠ طبعة خلال عدة سنوات ويترجم إلى أكثر من ٦٠ لغة ويصبح من أكثر الكتب انتشارا فى العالم وهو كتاب «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس » .

وبعد قليل بحث عن كتاب يصلح أساسًا لتعليم الناس كيف يتغلبون على القلق والخوف فلم يجد كتابًا ملائما فظل ٧ سنوات يقرأويجمع الحِكم والأمثال والمبادئ التى وردت على ألسنة الأنبياء والحكماء والفلاسفة وتصلح لأن تكون علاجًا للقلق ، وقرأ مئات من قصص حياة العظماء ثم صاغ كل ذلك فى كتاب عرف فى العربية باسم «دع القلق وابدأ الحياة » فأصبح هذا التعبير شائعًا فى كل مكان .

وحين سألوه عن سر نجاح معاهده وذيوع كتبه قال ببساطة إنه أشد الناس اندهاشا لذلك لأنه لم يفعل أكثر من تذكير الناس بالمبادئ التى جاء بها الأنبياء وأقوال الحكماء التى تساعد الآخرين على أن يعيشوا فى

سلام وإن محور منـاهجه وكتبه يـدور دائمًا حول مثلين من أمثـال الشعوب المعروفة هما : (١) لا تعبر جسرا قبل أن تصل إليه . . (٢) لا تبك على ما فات ! . فما هو الجديد فى ذلك .

وما قالـه المؤلف الأمريكى صـاحب المعهد الشهير الذى يحمـل اسمه ديـل كارنيجـى صحيح ، أمـا ما لم يقلـه فهـو أنه كـان أذكى مـن غيره فى اكتشاف حقيقة أن عـدو الإنسان الأول الذى يحرمه السعادة فى حيـاته هو القلق. . فحاول ان يساعده على قهـره بلغة بسيطة . . وبمنهج غير أكاديمى بعيد عن المصطلحات العلمية الجافة . ومن هنا كان نجاحه وانتشاره .

وبالرغم من أنه كرس حياته لتعليم الناس الا يستسلموا للضيق والانفعال . . والا يستسلموا لإحساس الكراهية للآخرين . . والا يحاولوا الانتقام من خصومهم . . وان يسعدوا بيومهم وألا يأسوا على ما فاتهم . . فلقد كان ينفعل أحيانًا ويضيق وينقم على الآخرين وحين كان يستسلم أحيانًا للغضب فإن زوجته التى كانت طـالبه سابقة بأحد فروع معهده قبل أن تلتقى به وتتزوجه ، كانت تطـالبه على الفور بأن يرد لها مبلغ ٦٧ دولارا هى تكاليف دراستها بمعهده بعد أن أثبت هو عمليا عدم جدوى مبادئه ! فيعود إلى هدوئه على الفور ويرفض رد الرسوم باسما . . ! .

ولا يقلل ذلك بالطبع من أهمية هذه المبادئ ولا من جدواها ففيلسوف الصين كونفوشيوس كان هو نفسه يعترف بأنه كان يعجز أحيانًا عن تطبيق بعض مبـادئه على نفسه ولا غرابة فى أن يستسلـم من يطالب النـاس بعدم الانفعال إلى الانفعال أحيانًا وإلا لما كـان بشرا كالبشر. . ويكفى أنه عاش فى سلام مع نفسه ومع الآخرين معظم فترات حياته . . وإن روشتته لعلاج

القلق كانت وما زالت من أنجح الروشتات العملية

وهى روشته طويلـة تبدأ بأن نقتنع بأن كراهيتنا لـلآخرين لا تؤذيهم فى شىء وإنما تـؤذينا نحـن وتحيل أيـامنا إلى جحيـم . . وإن أعداءنـا سوف يرقصون طربا إذا عرفوا كم يسببون لنا من ضيق وقلق فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ننيلهم مأربهم منا ونتشغل بهم وبضيقنا منهم .

وتتضمن بعد ذلك عدة مبادئ عامـة منها : عش فى حدود يومك . . لا تفكر فى الأمـس لأن تفكيرك فيه وحزنك عليـه لن يغير من امـره شيئًا ، ولا تفكر طويلا فى الغد وتغتم لـه . . فأنت لا تستطيع أن تعبر جسرا قبل أن تصل إليه ، وهمك الشديد بالغد لن يورثك إلا الخوف والقلق والمرض .

أما أفضل طريقة للاستعداد له فهى أن تركز نشاطك وحماسك فى إنهاء عمـل اليـوم على خير وجـه . . وبـذلـك تكـون قـد «فكـرت » فى الغـد واستعددت له دون خوف ولا وجل .

اما إذا واجهت أيـة مشكلة . . فلا تستسلم للقلـق وإنما اسأل نفسك هذه الأسئلة : ماهى المشكلة على وجه التحـديد . . ما هى أسبابها . . ما هـى كل الحلـول الممكنة لها . . مـا هـو أفضل هـذه الحلول . . ثـم اختر أفضل الحلول المتاحة . . وحين تتخذ قرارك بعد الدراسة لا تتردد فى تنفيذه ولا تضيع وقتا فى القلق والخوف . ومن ناحية أخرى فأفضل ما تفعل حين تواجه أى مشكلة وتجد نفسك قد استسلمـت للقلق والخوف وحرمت من النوم . . هو ان تسـأل نفسك : ما هو اسوأ شـىء يمكن أن يحدث نتيجة لهذه المشكلـة ؟ ثم تهيـئ نفسك لقبـول الاحتمال الأسوأ . . وتتحـرك على الفور لانقـاذ ما يمكن انقـاذه . . سوف تكتشف غالبـا أنك قد تفـاديت

اسوأ النتـائج لأن مجرد قبولك لها قـد أعاد لك صفـاء تفكيرك . . وتحركت لحل المشكلة فنجحت فى ذلك أو فى معظمه . .

دمر القلق قبل أن يدمرك . . وأفضل طـريقة لذلك هى الانشغال عما يخيفك ويثير قلقك بالاستغراق فى ممارسة أى عمل يتطلب التركيز والتفكير والابتكار . . لأن الـذهن البشرى مهما كان عبقـريًا لا يستطيـع أن ينشغل بأكثر من أمر واحد فى وقت واحد .

وقبل كـل ذلك وبعده تذكـر دائمًا ماذا يصنع احسـاس القلق والخوف بـالإنسان؟إنـه يصيبه بـاضطـرابات القلـب وقـرحة المعـدة وضغط الـدم والتهاب المفاصـل وزيادة نشاط الغدة الدرقية وآلام الأسنـان والقولون . . وأحيانًا يؤدى إلى الانتحار فما هو هـذا القلق الذى يهدد الإنسان بكل هذه الأهوال ؟

إنه انفعال يتسـم بالخوف والتوجس مـن أشياء متوقعة أو مـرتقبة تحمل لنـا تهديدًا حقيقيـًا أو مجهـولاً . . وحـالة وجـدانيـة غير مريحة تسيطـر على الإنسان أحيانـًا فيرى معها أخطارًا غير حقيقية أو متوقعـة من مصدر غير معلوم .

والقلق أنواع ودرجات . . ولا يخلو إنسان من درجة من درجاته كما أنه ليست كل أنواعه ضارة ولا فتاكـة بجسم الإنسان وأعصابه إلى هذا الحد . بل إن هناك نوعا منه لابد لكل إنسـان ناجح وكل إنسان طبيعى أن يتسلح به عنـد الضرورة . . وهو القلـق الذى يسميـه الأطباء بـالقلق الـدافع . . القلق الذى يتملك الإنسان قبـل مواجـهة موقـف يتطـلب شحـذ قـدراته لاجتيازه كـالتقدم لامتحـان دراسى . . أو لامتحـان لشغل وظيفـة . . أو

لمقابلـة شخصية هامـة يتوقف على لقائنـا بها الفوز بما نريـد . . أو تفادى العقاب والمحاسبة الخ . أو عند اتخاذ الإنسان لقرار هام فى حياته .

ففى كل هذه الحالات يحس الإنسان بالقلـق ويتوتر . . لكن قلقه هنا قلق إيجابـى مفيد وليس ضارًا وهـو قلق مؤقت . . ومعتـدل . . ويشحذ طاقات الإنسان لمواجهة الموقف المرتقب وينشـط امكاناته ، لهذا فهو قلق صحى مطلوب كقلق الفنان الذى يدفعه لإخراج أفضل ما عنده ، وافتقاد هذا النوع من القلق فى الوقت المنـاسب يُعد مؤشرا غير صحى . . ويؤدى إلى التراخى والكسل والغرور والثقة الزائدة بالنفس . . وبالتالى إلى الفشل .

أما القلـق المفترس فهو القلـق «العصابـى » المرضى الـذى يشل قـدرة الإنسان على الحركة والتفاعل مع الحياة . . وهـو انفعال مبالغ فيه بمواقف وأشياء لا تستدعى بالضرورة كل هذا الانـزعاج وقد يتزايد فيصيب الجسم بالقشعريرة والارتجاف وتتوتر عضلات الجسـم وليس أعصابه فقط . . وقد يتطرف فيصل إلى حالة من الذعر غير المفهوم . . ويحرم الإنسان من النوم والراحة وهو رفيق ملازم للخوف والوساوس والاكتئاب .

فإذا سمعت من يقول لك : دع القلق . . فاعلم أنه يقصد هذا القلق العصابى الضار . .

أمـــا إذا سمعتنى أقـــول لـك : ابـدأ القـلق . . واستمتـع بالنجـاح فأعـــرف أنى أنشـد لك القلـق الايـجابى الـدافـع الذى يطلـق مواهبـك وقدراتك وعبقـريتك . . ويحرر طاقاتـك الكامنة ويساعـدك على مواجهة المواقف . . ومـا دام الأمر كـذلك فـاقلق يـا صديقـى باعتـدال ولا تخش شيئًا . . والعاقبـة عندك فى النجـاح والسعادة . . وتـــحقيق الأحـلام . . إن شاء الله .

مجـرد سـوء تفاهـم !

غـادر الشاب بلـدته الصغيرة المظلمـة معظـم شهور السنـة إلى الدنيـا الواسعة . . لم يحتمـل البقاء فى هذه البلدة الكئيبة التـى لا تعرف الشمس ولا يدخلها زوار كثيرون . . والحياة فيها راكدة ومملة . . فتسلل من الفندق الصغير شبه المجهور الذى تملكه أمه بغير وداع ورأى اخته الطفلة الصغيرة تلعب فى الفناء فلم يتوقف لوداعها خوفًا من أن يضعف ، ومضى إلى محطة القطار ، كـان عمره ١٨ عـامًا . . وكان أبـوه قد رحـل عن الحيـاة منذ ٥ سنوات وقرر أن يحقـق طموحه بعيدًا عـن أسرته . فركب القطـار إلى الميناء البعيد . . وركـب الباخـرة من الميـنـاء إلى قارة بعيـدة تشرق فيها الشمـس معظم شهور السنة .

ولاطم أمواج الحياة ولاطمته . . واستقـر فى النهاية فى احدى المدن . . وحقق نجاحه . . وتزوج من فتـاة أحبها وأحبته وصنع ثروة كبيرة ، ومضى على زواجه ٥ سنوات سعيـدة ثم توقف فجأة وسأل نفسـه ماذا ينقصنى ؟ وأجاب على سؤاله :

أنا سعيد . . لكـن السعادة وحدها ليست كل شـىء . . فهناك أيضًا واجبات لابد أن يؤديها البشر لكى ينعمـوا بسعادتهم . . وواجبى الآن هو

أن أجد أمى وأختى وإن يكون لى وطن ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى المنفى إلى النهاية .

وقرر إن يعود إلى القارة التى هاجر منها . . والبلدة التى غادرها منذ عشرين سنة ، يبحث عن أمه وأخته ويحمل لهما معه الأحلام والثروة والسعادة .

ورافقته زوجته فى رحلته الطويلة . .

وطوال الطريق وهو يفكر كيف سيكون لقاؤه الأول مع أمه وأخته . . وكيف يقدم نفسه لأمه . . هل يقول لها : هـأنذا قد عدت . . أنا ابنك ! أم ينتظر أن تتعرف هى عليه وتسارع إلى عناقه . . وأخيرا قرر أن يعد لهما مفاجأة وأن يقيم فى فندقهما الصغير كأى نزيل عادى ويرقبهما عن قرب ويرى هل ستتعرف عليه أمه أم لا ثم يحاول التقرب منهما والحديث إليهما طويلا، ويبيت ليلته فى فندقهما الصغير وفى الصباح وعلى مائدة الافطار يلقى أمامهما بالمفاجأة ويعدهما بالسعادة وتحقيق الأحلام .

ولكى ينفذ خطته طلب من زوجته انتظاره فى فندق بعاصمة المقاطعة ، وسافر وحيدا إلى البلدة الصغيرة ، ودخل الفندق فرأى السيدة العجوز التى تقف خلف طاولة الاستقبال وتقدم منها بتهيب وتفحصها طويلا ، ثم طلب منها غرفة بالفندق وكوبا من الجعة قدمته له مع مفتاح الغرفة ، وتحدثت إليه قليلاً ، ثم جاءت ابنتها وحاول أن يتحدث معها بلهفة . . فعاملته بتحفظ وجفاء وطلبت منه ألا يتجاوز حدود ما سمته «لغة الزبائن» أى الحديث عن الجو والفندق ومواعيد الطعام ، وجفل العائد من جفائها . . لكنه أصر على أن يواصل اللعبة حتى نهايتها واختفت

المرأتان فى الداخل . . ففوجئ بزوجتـه وقد لحقت به لأنها لم تطق البعد عنه بعد ٥ سنوات لم يفترقـا خلالها ليلة واحدة ، وأقنعهـا بصعوبة شديـدة بأن تعود مـن حيث جاءت حتـى لا تفسد لعبتـه الأخيرة ، فانصرفت الـزوجة كارهة ، وصعد إلى غرفتة وبعد قليل جـاءته أخته التى لا تعرفه بكوب من الشاى . . ودهـش الرجـل فهو لم يطلبـه . . واعتذرت الفتـاة بأن خـادم الفندق قد فهم خطأ أنه يريد شايا وأبدت استعدادها للعودة به ، لكنه خجل أن يدعها تنصرف حاملة صينية الشاى فطلب منها تركها على المائدة آملا أن يخفف ذلك من نفورها منه ، فتركته وانصرفت ، واحتسى الشاى مجاملة لأخته التى لا تعرفه .

وبعد قليل أحس برغبة فى النـوم . . فنهض ليتجه إلى فراشه . . لكنه لم يصل إليه فقد سقط على الأرض ، وفتحت المرأتان باب الغرفة ودخلتا ، وتعاونتـا على حمله وإخراجـه من الباب الخلفـى للفندق إلى شاطـئ الترعة القريبـة . . ثم القيـاه فيها ، وعادتـا إلى غرفته تبحثـان عن نقـوده وأوراقه وساعته!

لقـد كانتـا هما أيضـا تحلمان بمغادرة هـذه البلـدة المظلمة الكئيبـة . . وتريـدان جمع المال الذى يمكنهما من الهجرة والحيـاة فى مدينة على شـاطئ البحر، يستمتعان فيها بالشمس والضـوء والصخب بعيدا عن هذه البلده المهجورة .

لكن وسيلتهما إلى السعـادة اختلفت عن الـوسيلة التى حقـق بها الابن المهاجر سعادتـه فلقد اختار أن يهاجر ويكافح ويصنع نجاحـه وثروته أما هما . . فلقد اختارتا الجريمة . . ونفذتاهـا من قبل فى بعض نزلاء الفندق

القليلين وكانت مواصفات الضحية دائما واحـدة هى أن يكون نزيلا وحيدا وغنيا وقـد انطبقت الشروط على هذا النـزيل الجديـد فقررتا أن تكـررا قصة الجريمة وقررتا أن تكون المرة الأخيرة . . فلقد قارب المبلغ على الاكتمال .

. . وكانـت الجريمة الأخيرة فعـلا . . فلقد عـرفت الأخـت شخصية شقيقها من جواز سفره . . واطلعت أمها على الكارثة . . فأسرعت الأم إلى شاطئ الترعة والقت بنفسها وراءه لتغـرق معه أما الأخت فلقـد قررت أن تنهى حياتها فى غرفتها . . وقد فقدت الاحساس بكل شىء حتى الحزن . ثم جاءت زوجـة الابن تستفسر عن زوجهـا فصدمتهـا أخته بالحقيقـة المروعة بهدوء قاتل وتركتها لتنفذ آخر جرائمها وتغتال نفسها .

هذا هـو ملخص مسرحيـة سوء تفـاهم للكـاتب الفـرنسى الـذى فاز بجائزة نوبـل قبل مصرعه ألبير كامى ، وقبل أن تشعـر بالارتياح لأنها مجرد قصة مـن نسج الخيال وليسـت واقعا مفـزعا . . أبادر بأن أقـول لك أن كامـى قد بنـى هذه المسرحيـة على حادثـة حقيقية وقعـت فى إحدى قـرى تشيكوسلوفـاكيا ونشرتها الصحف وقتها ، والاختلاف بين مسرحيـة كامى والقصة الحقيقيـة هو فى مصير القـاتلتين ، ففى الجريمـة الواقعيـة شنقت الأخت نفسها فى غـرفتها فور علمها بالحقيقـة ، أما الأم فقد أصابتهـا لوثة من الجنون المؤقـت فاعترفت بكل شـىء وبجرائمها السابقـة وحوكمت ، لكن كامـى اختار للاثنتين أن تنتحرا بـأيديهما ربما تنزيهًا للأم عـن أن تقبل الاستمرار بين الأحياء بعـد أن عرفت أنها قد قتلت ابنها الشـاب الذى عاد ليسعدها وينتشلها من حياتها المملة . .

ويرى ألبير كامى أن قتل الابن قد حـدث بسبب سوء تفاهـم يتحكـم

فى المصير الإنسانى وهو فى رأيه قانون يسود العالم !

ذلك أن أحد أسباب شقاء البشر فى رأيه أنهم لا يعبرون عن أنفسهم ببساطه وأنهم يفضلون غالبًا أن يحيطوا أنفسهم بالغموض .

فلو ان هذا الابن قد نطق بكلمة واضحة وصريحة لما وقعت الجريمة وعلى أية حال فإن المسرحية تجسيد غريب لشوق الإنسان الدائم إلى السعادة فى عالم يريد كامى أن يقول لنا . . أنه لم يخلق موطنًا للسعادة !

وسواء اتفقت معه فى ذلك أو لم تتفق فلا شك أن من أهم أسباب سوء التفاهم الإنسانى الذى يجلب الشقاء هو أن وسائل الأفراد لتحقيق سعادتهم الخاصة قد تتعارض أحيانًا مع وسائل الآخرين للوصول إلى السعادة أو الاحتفاظ بها . . فاللص الذى يسرق مال غيره قد يرى فى حصوله عليه سعادته لكنه فى نفس الوقت يشقى من سلبه ماله بنفس القدر ، والرجل الذى يتطلع إلى امرأة غيره يرى فى نجاحه فى الفوز بها سعادته لكنه يُشقى بهذه «السعادة» آخر بنفس الدرجة وربما أكثر ، والمرأة التى تحلم باقتناص زوج غيرها ترى سعادتها فى تحقيق هدفها . . لكنها تُشقى أخرى بنجاحها هذا فى نفس اللحظة والموظف الذى «يحفر» تحت مقعد غيره بالدسائس والنميمة لكى يتهاوى المقعد ويفوز هو بمنصب صاحبه يرى فى نجاحه فى ذلك سعادته . . لكنه أيضا يُشقى بذلك غيره . . وهكذا .

ولكن السعادة فى تقديرى ليست طريقا محفوفا بالأشواك إلى هذا الحد دائما والسعادة فى البداية والنهاية استعداد شخصى . . فإذا توفر هذا الاستعداد عند إنسان ما فإن عوارض الحياة الطارئة من ثروة ونجاح ومرض

وازمات إنما تـزيد أو تقلل مـن سعادته وإن لم يتوفـر عند إنسان فـإن هذه العوارض نفسها إنما تـزيد أو تقلل من شقائه لأن الأصل عنـده هو الشقاء وليس العكس .

وعند المفكـر الفرنسى مونتسكيـو فان الأشقياء نوعـان ، الأول مصاب «بفشل الروح» الذى يجعل مـن المستحيل أو من الصعب على أى شىء فى الحيـاة مـن ثـروة أو نجاح أو جمال أن يحرك روح الإنسـان ويشعـر بقيمـة الأشياء وجمال الحياة .

والثانـى : هو النوع المصاب بعـذاب الرغبة فى كـل شىء . . وفيما لا تؤهله قدراته للوصول إليه ، وأمثال هذا النوع فى رأيى هم الذين يجرون دائما وراء أهداف متحركة لا يصلون إليها أبـدا وكلما اقتربوا منها ابتعدت عنهم بلا نهاية !

أما السعـداء فهم أيضا نـوعان ، الأول يرغـب فى أشياء بسيطة تـؤهله امكاناتـه وقدراته للحصول عليها ، والثـانى نوع جهازه الإنسـانى منضبط بدقـة على التوافق مع الظـروف المحيطة به ويـرضى دائمًا بحياته وبكـل ما تحمله إليه الحياة .

والرغبة فيما لا تـؤهلنا الحياة لنيله هـى دائما بداية الطريـق إلى المعاناة ، لكن الحياة من ناحية أخرى بـلا هدف مشروع يتوافق مع قدرات الإنسان ولا يتصادم بقدر الامكان مع أهداف الآخرين هى الجحيم بعينه !

فكل النماذج التى أشرت إليها لا تسعى إلى سعادة حقيقية دائما . . لأن السعـادة الحقيقية هـى التـى لا يحس الإنسان معهـا بـوخز الضمير لأنـه اغتصب حق غيره . . أو لأنه أقام سعادته على انقاض سعادة الآخرين أو

لأنه استخدم وسائل غير مشروعة فى تحقيقها . .

كما إنها ليست عسيرة المنال كما يصورها لنا كامى المتشائم .

فلكل إنسان سعادته الخاصة التى لا يدرك أحد سرها والتى تتفاوت من شخص إلى آخر . . كما انه ليست هناك على وجه الأرض سعادة كاملة من كل الجوانب . . فلكل إنسان دائما من حظه بعض ما يسعده ومن همه بعض ما يشقيه ، والإنسان السعيد حقا هو الذى يرضى بأقداره ويسعى لتغيير ما يستطيع تغييره من ظروفه ويتقبل ما لا يستطيع تغييره منها ويتواءم معه .

فتحديد الهدف يشغل الإنسان ويبرر له حياته ومعاناته ، والنفس التى لا يشغلها شىء أو هدف تحس الملل والسأم ومن ثم بالشقاء ولو كان صاحبها يتقلب فى النعيم اذ أن صفات النفس البشرية كما يقول لنا مونتسكيو أن تظل فى تفكير مستمر وإنه لو انقطع هذا التيار المستمر من التفكير فإن الإنسان يحس بالملل والشقاء ويفتقد الحماس للحياة .

أما أكبر ما يحول بين الإنسان والسعادة فى رأيه فهو أنه يريد أن يكون كالله قادرا على كل شىء !

وهذا مستحيل بالطبع

وحاشا لله أن يكون مثله أحد ، يقول للشىء كن فيكون

لكنها النفس البشرية المعذبة دائما برغباتها المعقولة منها او غير المعقولة أحيانا .

ولكنه الإنسان الذى قد يتوصل أحيانا إلى أهدافه بقتل ابنه وهو لا يدرى كما فعلت تلك المرأة الآثمة وابنتها .

ثـم يجيء البير كامـى بعـد سنين ليقول لنـا فى مسرحيتـه أنه مجرد سـوء تفاهم متأصل يحكم المصير الإنسانى .

. . وأنـه غموض الإنسـان وتعمـده عـدم استخدام لغـة واضحـة فى حياته!

ألف لعنة على الإنسان . . إن كان حقا كذلك !

أوه .. باردون !

أريد أن أعترف لك بسر شخصى . . هو أننى لا أكره فى الدنيا شيئا كما أكره التعصب الأعمى لرأى أو فكر أو عقيدة . . ولا احتقر احدًا كما احتقر الإنسان المتعصب الذى لا يرى الحق إلا فى جانبه . . ولا الباطل إلا فى جانب الآخرين . .

لهذا فإنى لا أحكم على الناس بمناصبهم ولا ملابسهم الأنيقة أو ثرائهم العريض وإنما بعقولهم وسعة افقهم ومدى احترامهم لآراء الآخرين وتسليمهم لهم بحقهم فى الاختلاف معهم فى الرأى أو العقيدة بغير أن ينال ذلك من حقوقهم ولا من كرامتهم .

ورأيى فى ذلك أن المتعصب هو إنسان قد اختار بارادته أن يعطل عقله ويوقفه عن التفكير واستقبال المؤثرات المختلفة وإن يشل قدرته على استكشاف وجه الصواب فى آراء الآخرين والاستفادة بها . . فكيف احترم من يهتم بغذائه وشرابه وملابسه ثم لا يهتم بتلقيح عقله بآراء الآخرين أو من ليس قادرا على التنازل عن رأيه إذا ثبت له خطؤه ، أو من ليس قادرًا على الفصل بين الأشخاص وبين آرائهم التى يختلف معها فيحاور أفكارهم ويقبلها أو يرفضها بغير أن يرفض هؤلاء الأشخاص أو ينقص احترامه لهم .

إن الإنسـان المتنور هـو الـذى يـؤمن بـأن رأيـه صـواب لم يثبت بعـد خطؤه . . وقـد يتبين له خطؤه إذا ظهرت فيها بعـد دلائل عقليه قوية تـؤكد ذلك ، وبأن رأى غيره خطـأ لم يثبت بعد صوابه وقد يتبين صـوابه إذا ظهر مـن الحقائق مـا يـؤكد ذلـك . وإنـه من التقـاء الآراء وتحاورهـا قد يظهـر الصواب الأقرب إلى الصحة واليقين .

إن هذه هـى سمة الإنسان واسـع الأفق البـاحث عن الحقيقـة . . أما الإنسان ضيق الأفق فهو «متأكد جدًا » من كل شىء . . ومن انه على حق وانـك على خطأ ، وقـد يتصرف ويتحـرك ويجادل ويخاصم ويعتـدى على أساس مـن هذا «اليقين » المزيـف الذى قد يثبـت خطؤه بـالحوار المنطقى العاقل .

لهذا كـان الفيلسـوف البريطانـى بـرتـرانـد راسل يقـول : إن الأغبيـاء متأكدون جدًا . . أما الأذكياء فيملؤهـم الشك دائماً ! أى الشك فى احتمال أن يكون ما يعرفون غير صحيح ولهذا فهم فى بحث دائم عن الحقيقة .

ومن قبله بقرون عديدة كان الامام أبو حنيفة النعمان رغم علمه وفضله لا يفترض فى رأيـه أنـه الصـواب دائماً وإنما كـان يقـول فى تـواضـع العلماء الحقيقيين : قولنـا هذا رأى . . وهـو أحسن مـا قدرنـا عليه فمـن جاءنـا بأحسن منه كان أولى بالاتباع منا .

وقد سئـل مرة : هـذا الذى تفتـى به النـاس أهو الحق الـذى لا شك فيه ؟ . . فسكـت قليلا ثم أجـاب متحيرا : والله لا أدرى . . لعله البـاطل الذى لا شك فيه !

بل إنه قال ذات مرة لأحد تلاميذه : ويحك يا يعقوب . . لا تكتب كل

ما تسمعـه مني . . فاني قـد أرى الرأى اليوم فـأتركه غدا وأرى الـرأى غدا فأتركه بعد غد !

فإذا كان هذا هو موقف عالم جليل كأبى حنيفة فكيف يتصور أحد أنه يحتكر اليقين وحده ، وإن كل من عداه مخطئون ؟

إن اختلاف الآراء من طبيعة البشر . . وهو من أول ما يميز المجتمعات الإنسانيـة عن مجتمعات الحيـوان والنباتـات ، فالحيوانـات لا تتحاور ولا تختلف آراؤها ، وإنما البشر وحـدهم الذين يفعلون ذلـك لأن الله سبحانه وتعالى قد خصهم بـالعقل وميزهم به عن غيرهم مـن الكائنات . ولأن لنا عقولا فلابد لهذه العقول ان تعمل وأن تفكر ، و بالتالى لابد أن تختلف آراء أصحابها . . بسبب حقيقة بديهية يعبر عنها الشاعر الألمانى جوته بقوله :

إذا كان مـن النادر أن تجد بين أوراق الشجر ورقتين متشـابهتين تمامًا فى كـل خصائصهما . . فـلا عجب إذن فى أنـه يندر أيضـا أن تجد بين البشر اثنين تتفق آراؤهما وأساليب تفكيرهما تمام الاتفاق !

ومأساة كل متعصب فى أى مكان وزمان ، هـى أنه ينطلق من مواقف ثابتة يتصور إنها وحـدها اليقين الذى لا شك فيه وليس مـن حق الآخرين أن يختلفـوا معه فيـه . . ومـأساة الآخـريـن معه هـى أنـه يراهـم دائمًا على «الباطـل» الذى لا شك فيـه ، وقد يتحرك ويتصرف على أسـاس «يقينه» هذا ولا يعرف الحقيقة غالبا إلا بعـد أن يتعذر اصلاح الأخطاء أو الاعتذار عنها .

ولقد روى الفنان العظيم شارلى شابلن فى مـذكراته إنه زار اليابان قبيل الحرب العالمية الثانية فحدث خـلال زيارته أن إغتال تنظيم عسكرى سرى

رئيس وزراء اليابان واضطر لقطع زيارته والعودة لأمريكا ، ثم جرت محاكمة التنظيم الارهابى فيما بعد فاعترف قادته بأنهم أعدوا خطة لاغتيال شابلن أثناء زيارته لليابان لسبب عجيب هو أنهم كانوا يدعون للحرب ضد أمريكا ويريدون توريط الحكومة اليابانية فى أزمة مع الولايات المتحدة تدفعها لاعلان الحرب على اليابان ، ففكروا فى اغتيال شابلن باعتباره فنانا أمريكيا محبوبا على أمل أن يغضب ذلك أمريكا ويؤدى إلى توتر العلاقات معها .

وليس فيما رواه شابلن فى حد ذاته أمر غريب على التنظيمات العسكرية الارهابية لكن الغريب حقا هو ما كتبه شابلن فى مذكراته تعليقا على ذلك إذ قال : وأنى لأتصور موقف هؤلاء الارهابيين لو كانوا قد اغتالونى ثم اكتشفوا حقيقة بسيطة هى أنى فى الواقع مواطن انجليزى ولست أمريكيا كما يعتقدون وأرادوا الاعتذار عن سوء الفهم «البسيط» هذا . . فرفع أحدهم قبعته لجثتى المضرجة بدمائها ثم قال بأدب : أوه . . باردون !

وهذه بالضبط هى كارثة أى متحجر أو متعصب وكارثة الآخرين معه . . وهو أنه قد يبنى مواقفه على أسس خاطئة ومعلومات قاصرة وجهل فاضح ثم ينهش الآخرين بما هو متأكد منه تأكد الأغبياء . . ولا يستطيع أن يعتذر عن خطئه إلا بعد الكوارث والملمات . . هذا إذا اعتذر أصلا ولم يصر على ضلاله حتى النهاية .

لقد كان أبو حيان التوحيدى يقول إن الحقيقة أكبر من أن يدركها عقل واحد ويضرب لذلك مثلا بأنك إذا وضعت عشرة أشخاص مكفوفى البصر أمام فيل ضخم وطلبت من كل منهم أن يلمس الجزء الذى أمامه ثم

يصفه لـك لقال لك الأول هذا عـاج ، وقال الآخر : هذه شجـرة ، وقال الثالث هذا حائط ، وكل منهم مصيب فى حدود ادراكه للمحسوس الذى أمامه ، لكنهم إذا تبادلوا الـرأى فيما ادركه كل منهم ولم يصر كل منهم على أن ما أدركـه هو وحده الصـواب الذى لا شك فيـه لتوصلوا معـا إلى أن ما أمامهم هو فيل أو على الأقل : حيوان ضخم لا نعرف اسمه !

وآفة كل متعصب تعصبا أعمى لرأى أو فكر أو عقيدة ، هى أنه يحكم على الأشياء بادراكه المحدود للأشياء وحده . . وينظر للحياة من ثقب ابرة ضيق هو ثقب رأيه وحده ويرفـض أن ينظر للحياة نظرة شاملة تتسع لترى كل شىء . . وتتقبل كل شىء . . فيعرف أنه لا يحتكر الحقيقة وحده وإن من حـق الآخريـن أن يفكروا ويعبروا ويختلفوا معـه وعنه فى الـرأى والفكر والعقيدة وفى أسلوب الحياة .

وإذا كان الأمـر كما شرحته لك . . فهـل ترى معـى إنه ليس مـن قبيل الصدفة ذلـك التشابه اللغوى العجيب بين كلمـة «متعصب» . . وكلمة «عصبى» . . أى سريع الانفعال طائش العقل ؟

أو بينها وبين كلمـة «عصاب» وهـو إصطلاح يستخـدم للاشـارة إلى مجموعة من الأمراض النفسية والعقلية .

ثم هـل تعذرنى بعـد ذلك فى كـراهيتى للتعصب والمتعصبين مـن كل الأديان وكل المذاهب وكل الأجناس والأنواع ؟

الفهــرس

صدر للمؤلف

١ ـ اصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	ادب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لاتأكل نفسك	مقالات وصور ادبية	الطبعة الأولى ١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الثانية ١٩٩١ (نفد)
		الطبعة الثالثة ١٩٩٣
٥ ـ نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٠
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩١
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٧ ـ صديقى ماأعظمك	مقالات وصور ادبية	الطبعة الأولى ١٩٩١
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور ادبية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
١٠ ـ اندهش ياصديقى	مقالات وصور ادبية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٢ ـ أرجوك لاتفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٤ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٥ ـ نهر السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣

رقم الإيداع ٢٠٦٠ / ٩٣
I .S. B.N 977 - 09 - 0129 - 6

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

ارجوك لا تفهمنى

لا تصدقنى إذا قلت لك مرة أننى جلست لأكتب مقالا فأخذتنى «نشوة الكتابة» ولم أشعر بالوقت وهو يسرقنى . . فالحق أنى لا أكره شيئا فى الحياة مثلما أكره الكتابة. ولو تُركت لنفسى ما جلست إلى مكتبى إلا لأقرأ واستمتع بما عانى غيرى لكى يسطره على الورق . . وليس هناك بالنسبة لى شىء اسمه نشوة الكتابة وإنما هناك شىء اسمه عناء التفكير «وغلب » التدقيق فى كل كلمة وشقاء الرجوع للمراجع لتوثيق أى معلومة تأتى عرضا فى مقالى . . ثم هناك بعد كل ذلك عذاب الشك فى قيمة ما كتبت وقلق الخوف من ألا يستحق عناء القراءة أو قبول القارئ له أو استحسانه !

ورغم أن كتابى الحادى عشر قد صدر لى منذ أيام . . فإنى لم اتخلص بعد من وساوسى تجاه ما أكتب ولم أجلس مرة لأكتب دون أن يراودنى خاطر جميل أشبه بالحلم استسلم له كثيرا . . هو أننى قد وجدت لنفسى «عملا» آخر بعيدا عن هذا العناء مع أنى لم أتخيل لنفسى منذ كنت فى الرابعة عشرة من عمرى حياة أخرى بعيدة عن دنيا القراءة والكتابة ولا أصلح لممارسة أى شىء آخر فى الحياة سوى هذا الشقاء الأبدى . .

فهل عندك ـ بعد أن تقرأ هذا الكتاب ـ حل آخر لهذه المشكلة ؟!

عبدالوهاب مطاوع